obeikandl.com

القسم الثاني :

قضايا وشخصيات

obeikandl.com

الشاعر الجاهلي المغمور

أبو دواد الإيادي

شاع فى كتب الأمثال العربية قولهم "جار كجار أبى دواد" فمن أبو دواد ؟ وما الذى فعله ذلك الجار الذى خلد فعله ذكراه ؟ ولم ضاع شعر أبى دواد؟٠

لقد كان أبو دواد الإيادى شاعرا مجيدا للوصف ، وكان ابنه شاعرا واسمه دواد، وابنته دوادة شاعرة أيضا٠

ولكن ما بقى من تراث هذه الأسرة الشاعرة قليل فى بطون أمهات الكتب٠ برغم جودته ورقته ٠

وفى السطور التالية نقضى ساعة فى ضيافة هذه الأسرة الشاعرة التى ذاع صيتها وضاع صوتها بين رياح التاريخ الأدبى الهوجاء:

اسمه وكنيته :

لم يتفق المؤرخون على اسم أبو دواد الإيادى٠ وهناك عدة روايات:

- قال الأصفهانى [1] : إن اسمه جارية بن الحجاج . وكان أبوه الحجاج يلقب بحمران بن بحر بن عصام بن منبه بن حذاقة بن زهير بن إياد بن نزار بن معد٠ ونسب القول بهذا الى يعقوب بن السكيت٠

١ - أبو الفرج الأصفهانى . الأغانى ، ج١٦ ٠ دار إحياء التراث العربى.- طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ص ٣٧٣ وما بعدها .

obeikandl.com

- وقال محمد بن حبيب البغدادى (ت٢٤٥هـ) فى كتابه "كنى الشعراء" أن اسمه حارث بن حمران ابن بحر بن عصام ، وأشار عبد السلام هارون فى تحقيقه لهذا الكتاب إلى ما أورده صاحب المؤتلف من أن اسمه جويرية بن الحجاج أو حنظله بن الشرقى كما فى الشعر والشعراء (١).
- وقال الآمدى فى "المؤتلف والمختلف" : اسمه جويرية بن الحجاج من حى من إياد . (٢)
- وقال ابن قتيبة فى "الشعر والشعراء : اختلفوا فى اسمه فقال بعضهم هو جارية بن الحجاج ٠ وقال الأصمعى : هو حنظلة بن الشرقى٠ وقد علق المحقق أحمد محمد شاكر على هذه العبارة واصفا إياها بالشذوذ لأن حنظلة بن الشرقى هو أبو الطمحان القينى ووردت له ترجمة فى الشعر والشعراء نفسه، كما أن الأصمعى الذى نسب إليه تسمية أبى دؤاد بحنظلة أورد لأبى دواد قصيدة فى الأصمعيات وقال : اسمه جارية بن الحجاج (٣).
- وقال كارل بروكلمان ان اسمه : جورية بن الحجاج (٤).
- وقالت د٠ بنت الشاطئ فى شرحها لرسالة "الصاهل والشاحج" لأبى العلاء المعرى عن جمهرة الأنساب أنه جارية بن الحجاج كما أشارت إلى ما

١- محمد بن حبيب . كتاب كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه .- تحقيق عبد السلام هارون ، فى نوادر المخطوطات، ج٥.- ط٢ .- القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٧٣م؛ ص٢٨٥ .

٢ . الآمدى . المؤتلف والمختلف . بيروت : دار الكتب العلمية .- ط٢ ؛ ١٩٨٢، ص ١١٥.

٣ . ابن قتيبة . الشعر والشعراء .- ج١ .- القاهرة : دار المعارف؛ ١٩٨٢ ؛ ص ٢٣٧.

٤ . كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربى .- ج١.- ترجمة د٠ عبد الحليم النجار .- ط٥ .- القاهرة : دار المعارف ؛ ١٩٨٣؛ ص ١١٨ .

أورده ابن قتيبة من خلاف فى اسمه(١) .

- وذكر ابن خلكان أن اسمه حارثة بن حجاج وقيل حنظلة بن شرقى(٢) .

وحاصل ما تقدم أن اضطراب الرواة فى ذكر اسمه يجعلنا أمام أحد الاحتمالات التالية:

١- أن يكون اسمه حارثة أو جارية٠ وواضح أن الاختلاف بينهما مرجعه إلى ظاهرة التصحيف التى كانت تسيطر على كتب التراث التى قلما ورد فيها نقط الحروف فمبنى الكلمتين - بدون النقط - واحد هكذا (حاره) .

٢- وأن تسمية "جويرية" وهى تصغير جارية التى أوردها الأمدى ونقلها عنه بروكلمان تقوى احتمال أن يكون الاسم جارية لاحارثة . وقد تكون تصغير الاسم صاحبة حقبة من حياته فى أول عمره مثلا .

٣- ولا خلاف بين الرواة على أن اسم أبيه "الحجاج" وأن لقب الحجاج هذا كان (حمران) مما جعل محمد ابن حبيب ينسبه إلى اللقب فيقول أن اسمه : حارث بن حمران .

٤- ولا خلاف بين الرواة على أن اسمه بعد أبيه مستقيم فجده هو بحر بن عصام .

---

١ . أبو العلاء المعرى . رسالة الصاهل والشامج .- تحقيق د٠ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) .- ط٢ .- القاهرة : دار المعارف ؛ ١٩٨٤؛ ص ١٥٨ .

٢ . ابن خلكان . وفيات الأعيان .- ج٥ تحقيق د: إحسان عباس، بيروت : دار صادر ؛ ١٩٧٧م ص ١٦٤ .

openkandil.com

٥- وأما حنظلة بن شرقى فهو خطأ محض ، أو قول منسوب إلى الأصمعى دون دليل وقد نقله ابن خلكان فيما يبدو عن ابن قتيبة وإن لم ينص على ذلك صراحة .

وأما كنيته (أبو دواد) فقد أشار إليها ابن منظور[١] فى لسان العرب فى مادة (دود) فقال : "قال بن الأعرابى: الدوادى مأخوذ من الدواد وهو الخضف الذى يخرج من الإنسان٠ وبه كنى أو دواد الإيادى والخضف - كما قال فى اللسان أيضا - هو الضراط وأنشد:

إنـــا وجـــدنا خلفـــاً بـــئس الـــخلف
عبـــدا إذا مـــا نـــاء بالجمـــل خضـــف
أغلـــق عنـــا بـــابه ثـــم حـــلف
لا يُـــدخل البـــوابُ الا مـــن عَـــرَف

ولكننا نستبعد أن يكون هذا المعنى اللغوى البعيد عن الذوق العربى هو مصدر الكنية .

ونميل إلى أن يكون أو دواد قد كنى بهذه الكنية لأن له ولداً اسمه دواد أشارت المصادر التاريخية الى وجوده والى أن لهذا الولد مع أبيه مواقف مشهودة سيأتى ذكرها ولعله كان أكبر - أو من أكبر - أولاده فكنى به .

١ . ابن منظور٠ لسان العرب .- م٢ - القاهرة : دار المعارف ؛ د٠ت؛ ص ١٤٥٠ (مادة دود)؛ ص ١١٨٩ مادة (خضف) .

موطنه :

يبدو أن دواد بن أبى دواد كان من أكابر بنى إياد الذين سكنوا شمالى الجزيرة العربية فقد وصفه المؤرخون بأنه كان أحد نُعَّات الخيل الثلاثة المشهورين والآخران هما طغيل الغنوى والنابغة الجعدى .

قالوا : "وإنما أحسن أبو دواد وصف الخيل لأنه كان على خيل النعمان بن المنذر"

وهناك من النصوص ما يدل على أن إيادا اختارت السكنى بأرض ما بين نهرى دجلة والفرات٠ فقد روى الأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ) فى كتاب "الاختيارين"(١)

قصيدة للأخنس بن شهاب التغلبى مطلعها:

لابنة حيطان بن عوف منازل كما رقَّش العنوان فى الرق كاتب

يذكر فيها بعض تنقلات قبائل العرب فى أراضى الجزيرة فيقول:

وبكر لها بر العراق ، وان تخف يحل دونها، من اليمامة حاجب

وصارت تميم بين قف ورملة لها فى حبال منتأى ومذاهب

وكلب لها خبث فرملة عالج إلى الحرة الرجلاء حيث تحارب

وغسان حى، عزهم فى سواهم يجالد عنهم حسر وكتائب

إلى أن يقول :

وغارت إياد فى السواد ودونها برازيق عجم تبتغى وتضارب

١ . الأخفش الأصغر (ت ٢٣٥هـ) . كتاب الاختيارين .- تحقيق د٠ فخر الدين قباوة .- ط٢ .- بيروت : مؤسسة الرسالة ؛ ١٩٨٤؛ ص ١٤٠ .

فالمراد بالسواد هنا أرض العراق، والبرازيق واحدها برزيق وهو الموكب بالفارسية.

كما روى الأخفش أيضا فى كتابه هذا قصيدة للأسود بن يعفر النهشلى (١) مطلعها:

نام الخلى وما أحس رقادى والهم محتضر لدى وسادى

جاء فيها :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد؟

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد

أرض تخيرها لبرد مقيلها كعب بن ماجة وابن أم دواد

وسنداد أسفل الحيرة بينها وبين البصرة، كما جاء فى المصادر، وقد كانت الحيرة هى عاصمة ملك المناذرة وهم من أصول عربية يمنية ترجع الى قبيلة لخم وقد جاءوا إلى أرض العراق فى حوالى القرن الثالث الميلادى واتخذوا الحيرة مستقرا لهم وهى تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات على بعد ثلاثة أميال من المكان الذى بنيت فيه الكوفة فيما بعد (٢).

وكانت قبيلة إياد - التى دان أكثر أفرادها بالنصرانية هم وتغلب وبكر - وقد غادرت أرض البحرين بعد أن أجْلتها عنها قبيلة عبد القيس، إلى أرض العراق بين

١ . السابق . ص ٥٥٨ .
٢ . د. يحيى الجبورى . الجاهلية .- بغداد : مطبعة المعارف، ١٩٦٨م، ص ٤٩ .

النهرين واستوطن الإياديون تكريت وسنداد وغيرهما من تلك البلاد الخصبة واتخذوا الزراعة مهنة لهم .

ولم تكن الزراعة من المهن التى تتفق مع الطبيعة العربية التى تميل إلى التجارة والرعى .

فقد كان العرب يرون فى الزراعة ذلا وهوانا لأنها كانت حرفة الحضر وأهل الحضر المستقرين، أما أهل البادية فكانوا أهل مغامرة وفتوة٠ وقد عير الأعشى قبيلة إياد بامتهان الزراعة .

فقال (١):

لسنا كمن جعلت إياد دارها تكريت تنظر حبها أن يحصدا

قوما يعالج قُمَّلا أبناؤهم وسلاسلا أجدا وبابا موصدا

وهذه الأبيات السابقة تدل على مساكن إياد بعامة ومساكن أبى دواد (ابن أم دواد) وكعب بن مامة بصفة خاصة٠

وذهب ابن خلكان فى ترجمته لأبى عبد الله محمد بن سنان الحرانى التبانى الحاسب (ت٣١٠هـ) وهو عالم فلكى قديم توفى بموضع يسمى الحضر بفتح الحاء وسكون الضاد - وهى مدينة قديمة بالقرب من تكريت بين دجلة والفرات فى البرية يلقب حاكمها بالساطرون - بفتح السين وكسر الطاء وضم الراء - وهو لفظ

١ . السابق ، ص ٧٨ .

سريانى معناه الملك، إلى أن أبادوا الايادى ذكر فى شعره حصار أردشير بن بابل أول ملوك الفرس لهذه المدينة وقتل الساطرون فقال أبو دواد (١):

وأرى الموت قد تدلى من الـ حضر على رب أهله الساطرون

مرعتـه الأيـام مـن بعـد ملك ونعـــيم وجـــوهر مكـــنون

مكانة أبي داود بين قومه :

روى الأصفهاني فى الأغاني (٣٧٧/١٦) عن الأصمعى أن أبا دالود كان على خيل المنذر بن ماء السماء فأكثر وصفه للخيل. وقد كان المنذر بن ماء السماء (٥١٤- ٥٥٤م) من أشهر ملوك المناذرة ومحط رحال الشعراء وكان يتمتع بشخصية قوية فقد رفض الديانة المزدكية التى عرضها عليه "قباذ" ملك الفرس الذين كان المناذرة يتبعونهم سياسيا مما أدى إلى عزله حتى أعاد كسرى أنو شروان الذى خلف قباذا وكان يبغض المزدكية فعاد المنذر حاكما للحيرة وعادت معه عاداته التى عرف بها مثل يومى النعيم والؤس وغيرهما.

ولاشك فى أن تولية أبى دواد أمر الخيل بالنسبة لملك كالمنذر كانت دليلا على مكانة اجتماعية متميزة حظي بها هذا الشاعر الإيادى مما جعله يتفنن فى نيل الحظوة بتجويد شعره وإتقان عمله، فأجاد فى وصفه الخيل حتى اشتهر. وقد كان لأبى دواد ناقة تسمى الزباء وكان بنو إياد - فيما يروى صاحب الأغانى - يتبركون بها. فلما أصابتهم سنة قاحلة تفرقوا ثلاث فرق : فرقة سلكت فى البحر فهلكت وفرقة قصدت اليمن الى حيث أصولها الأولى فسلمت. وفرقة قصدت أرض جيرانهم

١ . ابن خلكان . مرجع سابق ؛ ص ص ١٦٤- ١٦٥ .

من قبيلة بكر بن وائل فنزلوا بالحارث بن همام وكان السبب فى ذلك أنهم أرسلوا الزبا ناقة أبى دواد التى كانوا يتبركون بها واتبعوا سيرها فحيثما اتجهت اتبعوها ومازالوا كذلك حتى بركت فى فناء الحارث بن همام وكان أكرم الناس جوارا فقال أبو دواد يمدحه ويذكر ناقته الزباء:

فإلى ابن همام بن مرة أصعدت ظعن الخليط بهم فقل زيالها

أنعمت نعمة ماجد ذى منة نصبت عليه من العلا أظلالها

وجعلتنا دون الولى فأصبحت زباء منقطعا إليك عقاله

ويبدو أن أبا دواد لم يتبوأ تلك المكانة فى قومه إلا بعد أن ظهرت عليه مخايل الفروسية وأمارات الشجاعة فقد روى له أبو العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والشاحج أبياتا تموج بالفخر والفروسية وحب ركوب الخيل يقول فيها[١]:

علقت هامتى بعض ما يمـ نع منى الأعنة الأقدار

وانجرادى بهن نحو عدوى وارتحالى البلاد والتسيار

تلكم لذتى الى يوم موتى إن موتا وإن عمرت قصار

١ . أنظر المرجع رقم (٦) ص ١٥٨ .

openkandil.com

قصة جار أبى دواد :

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مكانة أبى دواد بين قومه أن نتغاضى عن البيت الشهير الذى يتردد كثيرا فى كتب التراث منسوبا إلى الشاعر قيس بن زهير العبسى وهو قوله:

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى جـــار كجـــار أبـــى دواد

ويروى أحيانا :

سـأفعل مـا بـدا لى ثـم آوى إلى جـــار كجـــار أبـــى دواد

وقد ورد ذكر ذلك الجار نفسه فى قول طرفة بن العبد يمدح عمرو بن هند :

إنـى كفـانى مـن هـم هممـت بـه جـار كجـار الحـذاقى الـذى انتصـفا

والحذاقى هو أبو داود منسوبا إلى حذاق وهم قبيلة من إياد٠ فمن ذلك الجار؟

الحقيقة أن الرواة اضطربوا فى تحديد شخصية ذلك الجار فمنهم من ذهب إلى أنه كعب بن مامة الإيادى وهو ابن عم أبى دواد ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه المنذر بن ماء السماء .

وقد روى الأصفهانى ثلاث قصص يبدو فيها عدم القدرة على تحديد ذلك الجار الشهم من بين هؤلاء الثلاثة٠ أما ابن قتيبة فقد جعل ذلك الجار ملكا من

openkandil.com

ملوك اليمن لجأ ليه أبو دواد، ثم جعله مرة ثانية الحارث بن همام بن مرة ، ثم نقل عن أبى عبيدة أنه كعب بن مامة ، ولم يحدد لنا كذلك إلى أى الروايات يميل .

أما أن هذا الجار الممدوح هو الحارث بن همام فقد ساق ابن قتيبة فى تأييد ذلك قصة مؤداها أن قباذ - ملك الفرس- أرسل جيشا بقيادة الحارث بن همام لتأديب قبيلة إياد فاستجار به قوم من إياد فيهم أبو دواد فأجارهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن قباذ هذا أراد أن يفرض الديانة المزكية التى يدين بها على المناذرة فلم يفلح إزاء تشدد المنذر بن ماء السماء مما أدى إلى عزل المنزل ثم تولى كسرى أنو شروان فأعاد المنذر ملكا على الحيرة ، ولا يبعد أن يكون قباذ قد جيش جيوشا أرسلها إلى الحيرة ولكن من المستبعد أن يكون الحارث بن همام إذا كان أميرا لهذه الجيش من الوهن والضعف بحيث يغيث أى مستغيث ، ويعفو عن بنى إياد - وهو مرسل إليهم كما روى بن قتيبة - لمجرد أن أبا دواد استجاره .

وحتى إذا أجاره من القتل والتشريد فهل ستدوم بينهما العشرة حتى يصبح ممدوحا له وموصوفا بأنه خير جار ؟

وعلى فرض صحة تلك الرواية فماذا فعل أبو دواد بعد أن الت دولة قباذ وعاد المنذر بن ماء السماء ملكا على الحيرة وكان أبو دواد كما قدمنا قيما على خيله ؟ الذى نميل إليه أن تلك الرواية هشة لا تثبت لنقد ولا تقوى أمام تمحيص .

أما الأصفهانى فقد روى أن أبا دواد مدح الحارث بن همام فأعطاه عطايا كثيرة ثم مات ابن لأبى دواد وهو فى جوار الحارث فوداه ، فمدحه أبو دواد فحلف له الحارث أنه لا يموت له ولد إلا وداه ، ولا يذهب له مال إلا أخلفه فطربت العرب

المثل بجار أبى دواد ، وهذه أيضا قصة يبدو عليها الوهن لأن الحارث يبدو فيها شخصا أهوج سريع الانفعال ، ما إن سمع قصيدة المدح حتى أقسم ليدين كل ميت من البنين وليخلفن كل فائت من المال وكان حريا بالرواة أن ينقلوا إلينا شيئا من قصيدة تفعل هذا الفعل السحرى فى نفس من قيلت فيه، وهو مالا نجد له فى كتب التراث أثرا.

فليس فيما بين أيدينا من مصادر أبى أبيات يمدح منها أبو دواد الحارث بن همام سوى تلك الأبيات الثلاثة التى ذكرناها سابقا فى حديث ناقته الزباء .

وأما الرواية الثانية التى ذهبت إلى أن جار أبى دواد هو كعب بن مامة الإيادى - ابن عمه- فقد أسندها ابن قتيبة إلى أبى عبيدة وأسندها الأصفهانى أيضا الى أبى عبيدة فقال : جاور أبو دواد الإيادى كعب بن مامة الإيادى فكان إذا هلك له بعير أو شاه أخلفها .

وهذه الرواية ليست ببعيدة فقد روى الأصمعى فى الأصمعيات قصيدة أبى دواد الشهيرة الت مطلعها:

منـع النـوم مـاوى التهمـام وجـديربـالهم مـن لا ينـام

والتى منها بيته الشهير :

لا أعد الإقتار عدما ولكن فقـد مـن قـد رزئتـه الإعـدام

ومنها يعتب على ابن عمه كعب بن مانه فيقول:

وأتانى تقحيم كعب لى المن طـق أن النـكثية الإقحـام

فى نظام ما كنت فيه فلاير زنك شيء ، لكل حسناء ذام

ولقد رابنى ابن عمى كعب أنــه قــد يــروم مــالا يــرام

فإذا صح أن جار أبى دواد المقصود هو ابن عمه كعب بن مامة الايادى ، فلا يبعد أن يكون هذا العقاب الذى ورد فى هذه القصيدة الأصمعية مما يكون بين الجيران والأصبه ممن يعرف بعضهم أقدار بعض، ولا يبعد أن تكون هذه القصة أعنى قصة مجاورة أبى دواد لكعب بن مامة وتعهد كعب بأن يخلف ما يتلف من ابن أبى دواد- مما ألف الرواة أن يصطنعوه إذا ما اشتهر علم من الأعلام بصفة من الصفات ، وكان كعب بن مامة ممن سار ذكرهم فى بلاد العرب واشتهروا بالجود والكرم فقد أثر رفيقة النمرى بالماء ومات عطشا فضرب بالمثل فى الكرم والتضحية (مجمع الأمثال ١/١٦٢) ومن ثم فلا يبعد أن يسند الرواة إليه كثيرا مما يقابلهم من قصص المروءة والشهامة .

وأما القصة الثالثة التى جعلت المنذر بن ماء السماء هو جار ابى دواد المعنى فى البيتين المنسوبين الى قيس بن زهير وطرفه فقد ساقها الأصفهانى فقال :

" كان أبو دواد الإيادى الشاعر جارا لالمنذرين ماء السماء .

وإن ابا دواد نازع رجلا بالحيرة من بهراء، يقال له رقبة بن عامر بن كعب بن عمرو ، فقال له رقبة : صالحنى وحالفنى .

فقال أبو دواد : فمن أين تعيش إياد إذا ، فوالله لولا ما تصيب من بهراء لهلكت ، وانصرفا على تلك الحال .

ثم إن أبا دواد اخرج بنين له ثلاثة فى تجارة الى الشام ، فبلغ ذلك رقبة البهرانى ، فبعث الى قومه فأخبرهم بما قال له أبو دواد عند المنذر ، وأخبرهم أن

القوم ولد أبى دواد ، فخرجوا إلى الشام، فلقوهم فقتلوهم ، وبعثوا برءوسهم إلى رقبة فلما انته الرءوس صنع طعاما كثيرا، ثم أتى المنذر ، فقال له : لقد اصطنعت لك طعاما كثيرا، فأنا أحب أن تتغذى عندى ، فأتاه المنذر وأبو دواد معه ، فبينا الجفان ترفع وتوضع ، جاءته جفنة عليها بعض رءوس بنى ابى دواد، فوثب وقال : ابيت اللعن ! إنى جارك ، وقد ترى ما صنع بى ، وكان رقبة ايضا جارا للمنذر. فوقع المنذر منهما فى سوءة ، وأمر برقبة فحبس ، وقال لأبى دواد : أما يرضيك توجيهى بكتيبتى الشهباء والدوسر إليهم ؟

قال : بلى .

قال : قد فعلت . فوجه إليهم بالكتيبتين .

فلما بلغ ذلك رقبة قال لامرأته : ويحك ! ألحقى بقومك فأنذريهم ، فعمدت الى بعض إبل زوجها فركبته ، ثم خرجت حتى أتت قومها ، فلما قربت منهم تعرت من ثيابها ، وصاحت وقالت : أنا النذير العريان ، فأرسلتها مثلا ، فعرف القوم ما تريد ، فصعدوا إلى أعالى الشام ، وأقبلت الكتيبتان فلم تصيبا منهم أحدا ، فقال المنذر لأبى دواد : قد رأيت ما كان منهم، وأنا أدى كل ابن لك بمئتى بعير، فأمر له بست مئة بعير، فرضى بذلك ، فقال فيه قيس بن زهير العبسى :

سأفعل ما بدا لى ثم آوي إلى جار كجار أبى دواد

openkandil.com

وهذه القصة الثالثة كما هو واضح فيها كثير من الغلو، وإن كانت توافق كثيرا من الطبائع العربية الحادة، ولا تخالف الواقع التاريخى الذى عاش فيه أبو دواد مقربا من المنذر بن ماء السماء والجمع بين الروايات الثلاث ليس عسيرا .

فلنا أن نتخيل أن أبا دواد وقومه نزلوا بالحارث بن همام فى أول مقدم قبيلتهم من البحرين مهزومين مطرودين على أيدى قبيلة عبد القيس، فأكرم وفادتهم وقضى حاجاتهم وأخلف بعض ما تلف من أموالهم .

وقد مدحه أبو دواد على حسن جواره فتناقل الرواة بعض هذا المدح الذى لم يعد له بين أيدينا وجود يذكر باستثناء تلك الأبيات الثلاثة التى اشرنا إليها عند حديثنا عن ناقة ابى دواد (الزباء) التى بركت فى فناء الحارث بن همام ، ثم زالت تلك العلاقة لأية أسباب طرأت أو إذا صح ما روى من أن الحارث كلف محاربة بنى إياد لحساب ملك الفرس "قباذ"٠ فلما عاد الملك إلى المنذر عاد بنو إياد ليعيشوا فى كنفة .

وأما أن يكون جار أبى دواد المقصود هو كعب بن مامة فهذا ما نستبعده لكونه ابن عمه٠ والعرب لا تصف الكريم ذا المروءة بأنه (جار) فلان إلا إذا كان الجوار هو العلاقة الوحيدة بينهما كما هو الحال بين أبى دواد والمنذر، أو أبى دواد والحارث٠ ولعل أبا دواد مدح الثلاثة فتناقل الرواة أخبار مديحة إياهم ثم سمعوا بقصة دفع أحدهم دية أولاده أو إخلاف ما تلف من ماله، فجعلوا كعبا مرة وجعلوا الحارث مرة ثانية وجعلوه المنذر مرة ثالثة .

وكل من الثلاثة من ممدوحى أبى دواد وليس الجوار بالأمر اليسير عند العرب فقد كان من مفاخرهم حماية الجار وبخاصة إذا كان ذلك الجار غريبا لاذ بقوم أو استعاذ بهم أو استنصرهم فقد كانوا يبذلون فى سبيل حمايته كل ما يستطيعون من قوة .

وقد كان أبو دواد نفسه ممن يرعون حرمة الجار فهو يفخر بذلك فيقول عن قومه (١):

أرى جارنا آمنا وسطنا ... يروح بعقد وثيق السبب

إذا ما عقدنا له ذمة ... شددنا العناج وعقد الكرب

والعناج عروة فى أسفل الدلو من باطن تشد إلى أعلى الكرب، فإذا انقطع الحبل أمسك العناج الدلو حتى لا يقع فى البئر ، والكرب هو الحبل الذى يربط به الدلو وقد يثنى ويثلث تقوية له، فهو يعنى بهذا شدة عنايتهم بالعهد الذى يربطهم بجيرانهم .

وفى موقف آخر نرى أبا دواد يعاتب بعض قومه من بنى كعب وعمرو فيذكر أنهم لم يحفظوا له ما ينبغى من حقوق الجوار فيقول (٢):

كنت جارا لكم فأشمتم النا ... س بى اليوم آل كعب وعمرو

شركم حاضر ودركم در ... فردوس من الأرانب بكسر

١ . انظر ابن قتيبة (المرجع رقم ٤) ، ص ٢٤٠ .
٢ . أنظر المرجع رقم (٦) ، ص ٥٢٢ .

فلا غرو إذا كان أبو داود يرعى للجوار هذه المنزلة، أن يكون هو نفسه خير مداح لمن يحسن جواره ويرعى حرمته سواء أكان ذلك الجار هو سيدة ومليكة المنذر أو ابن عمه كعبا أو الحارث بن همام.

شاعرية أبى دواد :

تدل النصوص التى وصلت إلينا من شعر أبى دواد ، ومن أقوال نقاد الشعر ورواته عنه على أنه كان شاعرا مجيدا مطبوعا. إلا أن الرواة لم يتوسعوا فى رواية شعره لأن لغته ليست بنجدية كما نقل ابن قتيبة عن الأصمعى .

ويروى ابن قتيبة ايضا أن الحطيئة حين سئل من اشعر الناس؟ قال : الذى يقول:

لا أعد الاقتار عدما ولكن ... فقد من قد رزئته الإعدام

من رجال من الأقارب فادوا ... من حذاق ، هم الروس الكرام

فيهم للملاينين أناة ... وعُرام إذا يراد العرام

فعلى إثرهم تساقط نفسى ... حسرات ، وذكرهم لى سقام

وهذه القصيدة أجود شعره، ويستجاد منها قوله فى صفة إبله:

إبلى الإبل لايحوزها الرا ... عون، مج الندى عليها المدام

سمنت فاستحش أكرعها، ا الـ ... ـنى نى ولا السنام سنام

فإذا أقبلت نقول : إكام ... مشرفات ، بين الإكام إكام

وإذا أعرضت تقول : قصور ... من سنماهيج فوقها آطام

وإذا مـــا فجئتهـــا بطـــن غيـــث قلـت : نخـل قـدحان منهـا صـرام

فهى كالبيض فى الأداحى، مايو هـــب منهـــا لمســـتتم عصـــام

وقد شهد لأبى دواد فى مقدرته الفذة على وصف الخيل كل من الأصمعى وأبى عبيدة وهما من أعلام اللغويين المتذوقين فقد قال الأصمعى فيما يروى صاحب الأغانى : "ثلاثة كانوا يصفون الخيل، لايقاربهم أحد : طفيل ، وأبو دواد ، والجعدى

فأما أبو دواد فإنه كان على خيل المنذر (بن ماء السماء)٠ وأما طفيل فإنه كان يركبها وهو أغرل الى أن كبر، وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها من اشعار الشعراء فأخذ عنهم ".

وقال أبو عبيدة : " أبو دواد أوصف الناس للفرس فى الجاهلية والإسلام وبعده طفيل الفتوى والنابغة الجعدى".

ونقل صاحب الأغانى عن ابن الأعرابى قوله : "لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبو دواد"٠

وقد شهد لأبى دواد بالقدرة الفنية علم لغوى آخر هو أبو الأسود الدؤلى فقد روى الأصفهانى أن الإمام عليا كرم الله وجهه كان من عادته أن يفطر الناس فى رمضان، وكان من عادته إذا فرغ الناس من العشاء، أن يتكلم معهم قليلا أو كثيرا٠ وحدث ذات ليلة أن اختصم الناس حتى ارتفعت أصواتهم فى اشعر الناس ٠

قال الإمام على لأبى الأسود الدؤلى : قل يا أبا الأسود٠

فقال أبو الأسود الدؤلى - وكان يتعصب لأبى ال دواد - : اشعر الناس الذى يقول:

ولقد اغتدى يدافع ركنى أهو ذى ذو ميعة إضريج

مخلط مزبل مكر مفر منفح مطرح سبوح خروج

سلهب شرجب كأن رماحا حملته وفى السراة دموج

فهو يصف حصانه فى هذه الأبيات ذات الكلمات الغليظة بأنه حصان متمرس يحسن الجرى ويتفنن فيه، ويحسن مسابقة الخيل، وينتقل فى جرية من حال إلى أحسن حال منها .

وقد نقل الأصفهانى ايضا شهادة الحطيئة لأبى دواد بأنه أشعر الناس تلك التى ذكرها ابن قتيبة، ومن مجموع هذه الشهادات يظهر لنا أن أبا دواد كان يتمتع بسمعة فنية طيبة حتى بعد عصره بعهد طويل .

أسرة أبى دواد :

يبدو أن أبا دواد كان مزواجا وكان ذا أسرة كبيرة، فقد سبق أن ذكرنا أن ثلاثة من أبنائه قتلهم رقبة البهرائى ووداهم المنذر بن ماء السماء كما سبق أن أشرنا إلى أنه كنيته من المرجح أن يكون قد كنى بها بعد أن كبر ابنه دواد الذى أصبح بدوره شاعرا، وقد روى له صاحب المؤتلف والمختلف أبياتا قال إنه رثى بها أخاه هى قوله[1] :

فبات فينا وأمسى تحت هادية يا بعد يومك من ممسى واصباح

لا يدفع السقم إلا أن يسقيه ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح

١ . انظر المرجع رقم (٣) ص ١١٦ .

obeikandi.com

لا يصحب الغى إلا حيث فارقه إلى الرشاد ولا يصغى إلى اللاجى

إلا أن الأصفهانى فى جعل هذه الأبيات فى رثاء أبيه أبى دواد وروى منها بيتين فقط هما:

فبات فينا وأمسى تحت هائرة ما بعد يومك من ممسى واصباح

لا يدفع السقم إلا أن نفديه ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح

وواضح أن فيهما تصحيفا أو تحريفا .

ومما جعلنا نقول أن أبا دواد كان مزواجا تلك الروايات التى ساقها من أرخو له عن خلافاته مع زوجاته .

فقد روى أن زوجة أم دواد ماتت وتزوج غيرها وكان دواد قد اصبح شابا فتيا فأولعت به زوجة أبيه التى كانت مخطية عند أبى دواد ، فأرادت أن تكيد لدواد فأمرت أباه أن يطرده من منزله فخرج به وقد اردفه خلفه الى أرض جرداء ليس فيها شيء ، فألقى سوطه متعمدا وقال : أى دواد ٠ أنزل فناولنى سوطى، فنزل، فدفع أبو دواد بعيرة بعيدا عنه ثم قال يخاطبه :

أدواد إن الأمر أصبح ما ترى فانظر دواد لأى أرض تعمد؟

فقال له دواد : على رسلك .

فتمهل فى سيره فقال له دواد :

وبأى ظنك أن أقيم ببلدة جرداء ليس بغيرها متلدد؟

فرجع إليه وقال له : أنت والله أبنى حقا٠ ثم رده الى منزله . وطلق امرأته .

وروا أنه كان متزوجا من امرأة يقال لها أم صبير فكانت تلومه على إنفاقه المال فى المكرمات وبذله للأقربين والمحتاجين فلم يكن يسمع لومها فساءت بينه وبينها العلاقات حتى هجرته وفى هذه الزوجة يقول من قصيدة له :

فى ثلاثين ذعذعتها حقوق أصبحت أم حبتر تشكونى

زعمت لى بأننى افسد المـا ل وأزويه عن قضاء ديونى

أملت أن أكون عبداً لمالى وتهنا بنافع المال دونى

ويقول فيها من قصيدة أخرى:

حاولت حين صرمتنى والمرء يعدز لا محاله

والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعاله

والمرء يكسب ماله والشح يورثه الكلاله

والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

والسكت خير للفتى فالحين من بعض المقالة

وقد روى الأصفهانى ما يدل على أن أسرة أبى دواد ربما عقدت فيما بينها جلسات لمطارحة الشعر فمن ذلك ما رواه فقال:

بينا أبو دواد وزوجته وابنه وابنته على ربوة، وإياد إذ ذاك بالسواد ، إذ خرج ثور من أجمة ، فقال أبو دواد :

وبدت له أذن توج س حرة وأحم وأرد

وقوائم عوج لها من خلفها زمع زوائد

كمقاعـد الرقبـاء للـض ربـــاء أيـــديهم نواهـــد

ثم قال : أنفذى يا أم دواد ، فقالت :

وبـــدت لـــه أذن توجـــ س حـــرة وأحـــم مولـــق

وقوائـــم عـــوج لـــه مـن خلفهـا زمـع معلـق

كمقاعـد الرقبـاء للـض ربـــاء أيـــديهم بـــألق

ثم قال : أنفذ يا دواد ، فقال :

وبـــدت لـــه أذن توجـــ س حـــرة وأحـــم مرهـــف

وقوائـــم عـــوج لـــها مـن خلفهـا زمـع ملفـف

كمقاعـد الرقبـاء للضـ ربـــاء أيـــديهم تـــلقف

ثم قال : أنفاى يا دوادة ٠

قالت : وما أقول مع من أخطأ .

قالوا : ومن أين أخطأناه ؟

قالت : جعلتم له قرنا واحدا ، وله قرنان .

قالوا : فقولى .

قالت :

وبـــدت لـــه أذن توجـــ ـــس حـــرة وأحمتـــان

وقوائـــم عـــوج لـــها مـن خلفهـا زمـع ثمـان

كمقاعـد الرقبـاء للمضـ ربـــاء أيـــديهم دوان

obeikandl.com

اللغة – توجس : تسمع إلى الصوت الخفى ، وحرة : صادقة السمع مرهفة .

والأحم : القرن الأسود .

والوارد : الطويل .

الزمع : الشعر الذى فى مؤخرة رجلى الشاه أو الظبى ، واحدته زمعة .

الرقباء : الذين يمسكون عيونهم وينظرون سمات القداح . والضرباء : الذين يضربون القداح .

يريد بالانفاذ هنا : محاكاة شعره مع تغيير الكلمة الأخيرة منه، تمرينا على القول ، والتمرس بالقوافى .

فهل تكون هذه السطور دعوة للقراء والباحثين لبذل مزيد من الجهد لتجلية تراثنا العظيم المجهول ؟

obeikandl.com

جانب مجهول من شخصية معروفة

ابن خلكان شاعراً

حين يظلم التاريخ علماً من الأعلام فيضعه حيث طارت شهرته ، ويغفل وضعه في مجالات أخرى برع فيها وأبدع ، يكون هذا مقبولاً على مضض ، فمثلاً يقدم التاريخ إلينا ابن سينا على أنه طبيب بارع ، وأحياناً على أنه فيلسوف ونادراً ما يقدمه إلينا على أنه شاعر مجيد أيضاً .

ولكن حين يظلم التاريخ علماً من الأعلام ، ويكون هذا العلم مؤرخاً صناعته تدوين التاريخ ، نجد أنفسنا أمام موقف غريب يثير الضحك الحزين أو الحزن الضاحك إن جاز التعبير .

فمن المعروف أن كتاب " وفيات الأعيان " – بفتح الواو والفاء – لابن خلكان من أشهر كتب التراجم في تراثنا العربي ، ذلك أنه تميز من دونها بميزات عديدة منها أنه ترجم لمساحات زمنية واسعة قد تصل إلى ستة قرون من الزمان ، ومنها أنه كان يهتم بذكر تواريخ الميلاد والوفاة ، ومنها أنه كان يتحرى الصدق في الروايات التي ينقلها عمن سبقوه ، ومنها أنه كان يذكر البارعين المشاهير في مجالات مختلفة ، فلا يترجم لفئة دون فئة كما فعل بعض سابقيه ممن اهتموا بالترجمة للشعراء فقط أو للمفسرين فقط أو لرجال الحديث فقط .

وقد نال ابن خلكان عناية تليق بمكانته كمؤرخ متميز بين المؤرخين حققها بكتابه ذاك ، وبمنهجه العلمي السديد الذي ألتزمه فيه ، وقد حظي كتابه باهتمام لاحقيه من المؤرخين فنهلوا من معينه ، واعترفوا له بالفضل والسبق والإجادة ، وإن كان لم يسلم – كغيره من العلماء – من الطعن والغمز سواء في منهجه العلمي أو على مستوى سلوكه الشخصي ، ولعل هذا راجع إلى الحسد الذي أشار الإمام الغزالي في كتابه " أصناف المغرورين " إلى أنه يكون بين العلماء .

ولعل الجانب المجهول من حياة ابن خلكان هو كونه شاعراً بل لقد كان شاعراً رقيقاً وظريف المعاني ، جيد السبك ، مستريح القافية ، تبدو لغته الشعرية في غاية الروعة والرقة ، وليت التاريخ – الذي كان صناعته – قد حفظ لنا هذا الجانب المشرق من جوانب شخصية ابن خلكان .

وابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الأربلى ويكنى بأبي العباس ، قال عنه الزركلي في الإعلام (٢٢٠/١) هو المؤرخ الحجة ، والأديب الماهر كتابه " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً .

ولد في أربل بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي ، وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة ، وتولى نيابة قضائها وسافر إلى دمشق ، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام ، ثم عزل بعد عشر سنين ، فعاد إلى مصر وأقام بها سبع سنين ثم أعيد قاضياً للشام ، ثم عزل بعد مدة وتفرغ للتدريس في كثير من مدارس دمشق حتى توفي بها سنة إحدى وثمانين وستمائة ، وكان مولده سنة ثمان وستمائة .

ومن النماذج القليلة التي أوردها صاحب " الوافي بالوفيات " في ترجمته لابن خلكان ، والتي أثبتها في مقدمة المجلد الأول محقق كتاب " وفيات الأعيان " نستطيع أن نتبين شاعرية ابن خلكان التي لا يعرفها الكثيرون ، ونستطيع استنتاج أن هذا المؤرخ الفذ ، لو أتيح لنتاجه الشعريّ أن ينتشر لفاق كثيراً من كبار الشعراء الذين نعرفهم وقد يكون من السائغ أن نسأل عن سبب خمول ذكر ابن خلكان شاعراً ، ولكن المؤكد أننا لا نملك إجابة قاطعة على هذا السؤال وإن كانت هناك احتمالات يمكن أن نقدمها :

الاحتمال الأول :

أن الرجل كان عالماً كبيراً بدأ حياته بسماع صحيح البخاري بمدينة أربل من ابن مكرم الصوفي ، وتتلمذ لعدد كبير من مشاهير العلماء الذين أدركهم كالمؤيد الطوسي وعبد المعز الهروي وغيرهما ، كما انه اشتغل بالتدريس والتأليف وقد شاعت في تراثنا القديم فكرة تذهب إلى التعارض بين العلم والشعر استشهد عليها القدماء بقول القائل (وينسب أحياناً للإمام الشافعي)

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومرجع هذه الفكرة إلى تلك المفاهيم الخاطئة التي سادت العقلية العربية وربطت بين الجن وقرض الشعر . الأمر الذي استوجب أن ينفي القرآن الكريم الشاعرية عن محمد ﷺ لأن الوحي منزل من عند الله ﷻ ، وما يوحي به الشياطين لأوليائهم هو الكذب والعبث ، فكان من مظاهر التقوى أن تنزه العلماء عن قول الشعر وهذا خطأ جسيم .

الاحتمال الثاني :

أن الرجل عمل بالقضاء سنين عدداً ، ولمنصب القاضي أو قاضي القضاة هيبته ورهبته التي تمنع شاغله من أن يكون كآحاد الناس ، وتتطلب منه قدراً من الوقار الذي يلائم منصبه الديني الخطير.

الاحتمال الثالث :

أن الرجل وقد عرف عنه أنه عاش ميسور الحال كريم الموضع، عظيم المكانة في قلوب القيادة الحاكمة ، وفي قلوب الجماهير ، لم يكن راغباً في تحقيق شهرة عن طريق الشعر ، فكان يستمع إلى الشعراء يمدحونه ، وقد يكافئهم ، وإذن فمن العسير عليه أن يقف مادحاً بين يدي ملك أو وزير أو أمير.

ويؤيد أحد هذه الاحتمالات ، أو يؤيدها جميعاً ، أن النماذج التي بين أيدينا من شعر الرجل كلها من الشعر الوجداني العاطفي الرائع لا تشتم منها رائحة مدح ولا تلمس فيها أثرا للسياسة .

ويستطيع قارئ شعر ابن خلكان أن يلحظ ملمحين بارزين من ملامح شعره هما :

أولاً : التضمين .

ثانياً : سهولة العبارة مع جودة المعنى .

أما التضمين فهو إيراد اقتباس بنصه ووضعه في القصيدة بحيث يبدو كما لو كان جزءاً منها وهو ليس له ، وقد سبقه في هذا كثيرون ، ولكن التضمين نادراً ما يكون دقيقاً رقيقاً على النحو الذي نجده عند شاعرنا .

فمن ذلك قوله يصف ثلة من الغيد يلهون ويسبحن في غدير مياه حيث يقول :

وســـــربِ ظبـــــاءٍ في غـــــديرٍ تخـــــالهم
يقـــــول عـــــذولي والغـــــرام مصـــــاحبي
وفي دمـــك المطلـــول خاضـــوا كمـــا تـــرى
بـــــدوراً بـــــأفق المـــــاء تبـــــدو وتغـــــربُ
أمالـــك عـــن هـــذي الصـــبابة مـــذهبُ؟
فقلـــت لـــه " ذرهـــم يخوضـــوا ويلعبـــوا"
(المطلول : المسفوك بلا ثمن)

فهو هنا يضمن شعره جزءاً من آية قرآنية كريمة :

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ (١)

والصورة الشعرية مع ذلك متماسكة جيدة التركيب ، فقد شغفه حب أولئك الغيد ، وهن لاهيات عنه عابثات بمشاعره فتخيل هو وتخيل عذوله أن الماء الذي يسبحن فيه هو من دمه الذي سفكه عشقه إياهن .

ومن ذلك تضمينه للقول المأثور في قوله يصف غلاماً :

انظـر إلى عارضـه فوقـه لحاظه ترسل منها الحتوفْ
تشـاهد الجنـة في وجهـه لكنهـا تحـت ظـلال السـيوفْ

ومنه في نفس المعنى وهو يضمن من القرآن الكريم :

لما بدا العارض في خده بشّرت قلبي بالنعيم المقيمْ

١ - سورة الزخرف : الآية ٨٣ .

obeikandl.com

وقلت هذا عارضٌ ممطر فجاءني فيه العذاب الأليمْ

ويقول مضمناً شطر بيت لأبي تمام :

كم قلت لما أطلعت وجناته حول الشقيق الغضّ دوحة آس

لعذاره الساري العجول بخده "ما في وقوفك ساعةً من باس"

فالشطر الثاني من البيت الثاني ، هو الشطر الأول من مطلع قصيدة مشهورة وقف أبو تمام يمدح فيها الخليفة العباسي فقال :

ما في وقوفك ساعةً من باسِ تقضي حقوق الأربع الأدراسِ

ويروي الرواة أنه لما وصل إلى قوله في وصف مناقب الخليفة :

إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف في ذكاء اياس

قال له بعض الجالسين من المنافقين : كل من شبهت الخليفة بهم أقل منه شأناً ، فأطرق أبو تمام ثم ارتجل مباشرة :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

على أن لابن خلكان أشعاراً فريدة في حسنها ، معانيها مبتكرة ، والتمكن فيها من الموهبة واضح ، فمن ذلك قوله يصف معاناته بعد فراق الأحباب :

وما سر قلبي منذ شطت بك النوى نعيمٌ ولا لهوٌ ولا متصرّفُ

ولا ذقت طعم الماء إلا وجدته سوى ذلك الماء الذي كنت أعرفُ

obeikandl.com

فالبيت الثاني من هذين البيتين غاية في دقة وصف مشاعر المحب المهجور، حين تسود في وجهه الدنيا ويتساوى عنده الحزن والفرح ويصبح في حالة كانعدام الوزن أو هي أسوأ، فيتغير لون الأشياء ويتفق طعمها، بل ربما تفقد حواسه القدرة على التمييز.

ومن ذلك قوله:

كـــأنني يـــوم بـــان الحـــي مـــن أضـــم
ورقـــاء ظلـــت لفقـــد الإلـــف ســـاجعةً
يـــا جـــبرة الحـــي هـــل مـــن عـــودة فعســـى
إذا ظفـــــرت مـــــن الـــــدنيا بقـــــربكم
والقلـــب مـــن ســـطوات الـــبين مـــذعور
تبكـــي عليـــه اشـــتياقاً وهـــو مأســـور
يفيـــق مـــن نشـــوات الشـــوق مخمـــور
فكـــل ذنـــب جنـــاه الـــدهر مغفـــور

إن ابن خلكان عاشق متيم، ومحب مدله موله، ولكن شعره العاطفي يختلف عن شعر غيره من المحبين الشعراء، فهو يتغزل في محبوبه فيبتكر المعاني ابتكاراً، ويصطنع الصور الفنية فيحكم صوغها، ثم هو بعد ذلك لا يتهتك ولا يستعطف، ولا يتذلل، بل يبث محبوبه أشواقه وهيامه مرتفع القامة أو قل أنه لا يتذلل لمن يتدلل بل يتعلل بالذكرى، ويرتوي بسيرة المحبوب الذي هاجر، كل ذلك في ثوب قشيب من الصور وقصيدته التالية خير مثال مستدل به على أنه كان حرياً

بشعر هذا الشاعر أن يكون له صدىً بعيد المدى لولا أن طغت عليه شهرته كقاض ومؤرخ ، وفي هذه القصيدة يقول :

أي ليـــــلٍ علـــــى المحـــــب أطالـــــهْ
يزجـــر العِـــيسَ طاويـــاً يقطـــع المَهْمَـــه
أيهـــــا الســـــائق المُجـــــدّ ترفـــــقْ
وأنخْهـــــا هُنيهـــــةً وأرحهـــــا
لا تطـــل ســـيرها العنيـــف فقـــد بـــرّح
ســـــائق الظعـــــن يـــــوم زمّ جمالـــــهْ
عســـــفاً ســـــهوله ورمالـــــه
بالمطايـــــا فقـــــد ســـــئمن الرحالـــــة
قـــــد براهـــــا الســـــرى وفـــــرط الكلالـــــة
بالصـــــب في ســـــراها الإطالـــــة

إن الشاعر في هذه الأبيات يصف حالة الإبل التي نقلت متاع المحبوب وأهله وهاجرت بهم إلى بلاد لا يعلمها ، وهو هنا يناشد سائق الإبل أن يترفق بهذه الإبل الجائعة الكليلة المرهقة التي لا تستريح ، بل تجد في سيرها كان لها غايةً تريد أن تبلغها سريعاً فهي تصل الليل بالنهار حتى سئمت الارتحال والسير . هل يصف الشاعر هنا حالته هو نفسه ؟ ويتخذ من الحالة النفسية للإبل معادلاً موضوعياً لآلامه النفسية لابد أن الأمر كذلك ، فقد أسفر الشاعر في البيت الأخير عن التوحد

التام بينه وهو الصب المغرم وبين الإبل ، فالإبل تسير وتتألم وهو أيضاً يتألم كلما طال بها السير واشتد بها العذاب .

ثم ينتقل الشاعر إلى خطاب سائق الإبل لعله يرق لحاله فيعود بالمحبوب فيصف لنا نفسه بأنهم تركوه حليف الوجد والهم يطوف بديار المحبوب الخالية يندب أيامه وذكرياته ويسأل هذه الأطلال التي استحالت خراباً عن محبوبه ، وهو يدرك أن الأطلال المحيلة لن تجيب له سؤالاً ، ولكنه يقنع نفسه بمجرد الوقوف عندها والتأمل فيها ويذرف الدموع غزاراً حسرة وألماً على حاله:

وتـــــركتم وراءكـــــم حلـــــف وجـــــد
يســـــأل الربـــــع عـــــن ظبـــــاء المصـــــلى
ومحـــــال مـــــن المحيـــــل جـــــواب
هـــــذه ســـــنة المحـــــبين يبكـــــون
يـــــا ديـــــار الأحبـــــاب لا زالـــــت الأدْ
وتمشـــــي النســـــيم وهـــــو عليـــــل
أيـــن عـــيشٌ مضـــى لنـــا فيـــك مـــا أســـ
حيـــث وجـــه الشـــباب طلـــق نضـــيرٌ
نادبـــــاً في محلكـــــم أطلالـــــه
مـــا علـــى الربـــع لـــو أجـــاب ســـؤاله
غـــير أن الوقـــوف فيـــه علالـــة
علـــى كـــل منـــزل لا محالـــة

مُـــــعُ في تـــــرب ســـــاحتيك مذالـــــة
في مغانيـــــــك ســـــــاحباً أذيالـــــــه
ـــــــرع عنـــــــا ذهابـــــــه وزوالـــــــه
والتصـــــــابي غصـــــــونه ميالـــــــة

إن الشاعر يتحسر على ذكرياته في هذه الأماكن حتى إنه ليتمنى أن يعيش صورة ماضيه ولو في منامه حيث يستمتع للحظات بصور فاتنة ما أكثر ما استمتع بها في عالم الحقيقة :

ولنـــــا فيـــــك طيـــــب أوقـــــات أنـــــس
وبأرجـــــاء جـــــوك الرحـــــب ســـــرب
مـــــن فتـــــاة بديعـــــة الحســـــن ترنـــــو
ورخـــــيم الـــــدلال حلـــــو المعـــــاني
ليتنـــــا في المنـــــام نلقـــــى مثالـــــه
كـــــلُّ عـــــينٍ تـــــراه تهـــــوى جمالـــــه
مـــــن جفـــــون لحاظهـــــا مغتالـــــة
تتثنـــــى أعطافـــــه مختالـــــة

أولم نقل إن شعر هذا الشاعر كان خليقاً بأن يهيئ له مكاناً مرموقاً بين الشعراء المجيدين ؟ وكما رأينا فإن معظم النماذج التي وصلتنا من شعره وجدانية لا تتزلف حاكماً ولا تنافق أميراً ولا وزيراً ولا كبيراً ، بل إنه يصف – فقط – معاناته العاطفية الخاصة ولا يتبقى إلا أن نشير إلى الاضطراب الذي يرتبط بضبط اسم ابن

خلكان ، فقد روى صاحب " روضات الجنات " أن اسمه ينطق بفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة ، أو بضم الخاء وفتح اللام المشددة ، أو بكسر اللام والخاء جميعاً وجاء في التاج أنه بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة ، وهو ما نستريح إليه لاتفاق روايتين حوله ، كما أنه يقترب من الأسماء الفارسية وقد سبق أن أشرنا إلى أنه من ذرية البرامكة .

opeikandl.com

بن عبدل

اسم الشهرة الذي عرف به هذا الشاعر هو الحكم بن عبدل الأسدي ثم الغاضريّ الكوفي. أما تمام اسمه ونسبه فهو الحكم بن عبدل بن جبلة بن عمرو بن ثعلبة ابن عقال بن بلال بن سعد بن حبال بن نصر بن غاضرة ابن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة الأسدي ثم الغاضري الكوفي وهو شاعر مشهور القول، مجيد هجَّاء. نفاه ابن الزبير من العراق لما نفى عنها عمال بني أمية وقدم دمشق. وكان له من عبد الملك بن مروان موضع. وقال ابن ماكولا: هو الشاعر الأعرج، كوفي مشهور. قال غيره قال: كان يأتي ابن بشر فيقول له: أخمس مائةٍ أحبُّ إليك العام، أم ألف في قابل؟ فيقول: ألف في قابل. وإذا أتاه من قابل، قال له: ألف أحبُّ إليك العام أم ألفان من قابلٍ؟ فيقول: ألفان من قابلٍ، قال: فلم يزل كذلك حتى مات ابن بشر ولم يعطه شيئاً. وقال صاحب الأغاني: كان أعرج أحدب لا تفارقه العصا. فترك الوقوف بباب الملوك. وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله، فلا يحبس له رسول ولا تؤخَّر له حاجة. فقال في ذلك يحيى بن نوفل:

عصا حكمٍ في الدار أوَّل داخلٍ ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب
وكانت عصا موسى لفرعون آيةً... فهذي لعمر اللّٰه أدهى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب في المرضاة منها ويرهب

وشاعت هذه الأبيات بالكوفة، وضحك منها الناس. فكان الحكم يقول ليحيى: يا بن الزانية، ما أردت من عصاي حين صيَّرتها ضحكة؟ واجتنب أن يكتب عليها كما كان يفعل أولاً. وكان له صديق أعمى يدعى أبو عليَّة، وكان ابن عبدل قد أقعد. فخرجا ليلة من منزلهما إلى منزل بعض إخوانهما والحكم يحمل وأبو علَّية يقاد، فلقيهما صاحب العسس بالكوفة وأخذهما فحبسهما، فلما استقرا في الحبس، نظر الحكم إلى عصاه موضوعة بجنب عصا أبي عليَّة فضحك وقال:

حبسي وحبس أبي عليّة ..... من أعاجيب الزمان
أعمى يقاد ومقعدٌ ..... لا الرِّجل منه ولا اليدان
هذا بلا بصرٍ هناك ..... ، وبي يخبُّ الحاملان
يا من رأى ضبَّ الفلاة ..... قرين حوتٍ في مكان
طرفي وطرف أبي عليَّة .....- دهرنا - متوافقان
من يفتخر بجواده ..... فجوادنا عكَّازتان
طرفان لا علفاهما ..... يشرى ولا يتصاولان

وقال أيضاً من أبيات:

ففي حالتينا عبرةٌ وتفكُّر ..... وأعجب منه حبس أعمى ومقعد
كلانا إذا العكَّاز فارق كفَّه ..... يخرُّ صريعاً أو على الوجه يسجد
فعكَّازه تهدي إلى السُّبل أكمهاً ..... وأخرى مقام الرِّجل قامت مع اليد

وكان بالكوفة امرأة موسرة، وكان لها على الناس ديون بالسَّواد. فاستعانت بابن عبدل في دينها، وقالت: إني لست بزوج. وجعلت تعرِّض بأنها تزوجه نفسها. فقام ابن عبدل في دينها حتى اقتضاه. فلما طالبها بالوفاء، كتبت إليه:

سيخطئك الذي حاولت مني ..... فقطِّع حبل وصلك من حبالي

كما أخطاك معروف ابن بشرٍ ..... وكنت تعدُّ ذلك رأس مال

وضرب الحجّاج البعث على المحتملين ومن أنبت من الصِّبيان. وكانت المرأة تجيء إلى ابنها فتضمنه وتقول: يا ابني جزعاً عليه، فسمِّي ذلك الجيش جيش يا ابني. وأحضر ابن عبدل وجرِّد، فوجد أحدب أعرج، فأعفي من ذلك فقال:

لعمري لئن جرَّدتني فوجدتني ..... كثير العيوب سيءِّ المتجرَّد

فأعفيتني لّما رأيت زمانتي ..... ووفِّقت مني للقضاء المسدَّد

ولست بذي شيخين يلتزمانه ..... ولكن يتيمٌ ساقط الرِّجل واليد

وخرج ليلةً وهو سكران، محمولاً في محفَّة، فلقيه صاحب العسس، فقال له من أنت؟ فقال له: يا بغيض، أنت أعرف بي من أن تسأل عني،اذهب إلى شغلك فإن اللصوص لا يخرجون في الليل في محفَّة، فضحك الرجل وانصرف. وكانت له جارية سوداء، فولدت له إبناً أسود، وكان أعرم الصبيان فقال فيه:

يا ربَّ خالٍ لك مسودِّ القفا ..... لا يشتكي من رجله مسَّ الحفا

كأنَّ عينيه إذا تشوَّفا ..... عينا غرابٍ فوق نيقٍ أشرفا

واختصم البارقي وامرأة يوما إلى الشعبي، فقضى على البارقي وأنشأ يقول:

فتـــن الشعبـــي لـما ... رفـع الطرف إليها

فـتنتـــه بقـــــوام ... ويخطـي حاجبيها

وبنـان كـــالـمـــداري ... وبحســـن مقلتيها

كيـف لـو أبصر منها ... نحرها أو ساعديها

لصبـا حتـــى تـــراه ... ساجداً بين يديهـا

بنت عيسى بن جراد ... ظلم الخصم لديهـا

فقضـــى جـوراً علينا ... ثم لم يقض عليهـا

قال للجلـــواز قـدمها ... وأحضر شاهديها

وروى صـــاحب أخبـــار القضـــاة - (ج ١ / ص ٢٤٧)قـــال : جـــاء الشـعبي يومـا إلى قصـر عبـد الملك بـن مـروان، فقـرع البـاب، فقـال الآذن: مـن هـذا ؟ فقـال: الشعبي ... فقال الآذن :

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها

فقال الآذن: فتنته بقوام قال الشعبي: وبخطّي حاجبيها قال الآذن: كيف لو أبصر منهـا قـال الشـعبي: خصـرها أو معصـميها قـال الآذن: لصبـا حتـى تـراه. قـال الشعبي: ساجداً بين يديها.

قال الآذن: تلكم بنت جراد. قال الشعبي: ظلم الخصم لديها. قال الآذن: قال للجلواز قدمها.

oberkandl.com

قال الشعبي: وأحضر شاهديها. قال الآذن: فقضى جوراً علينا.قال الشعبي: ثم لم يقض عليها. ثم ضحك الشعبي: حتى استلقى، ثم قال: واللّٰه ما كان من هذا شيء قط. !!

وولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج ثم ولي الإمارة آخر أعرج و في أحد الأيام خرج الشاعر ابن عبدل - وكان أعرج - فلقي سائلاً أعرج قد تعرض للأمير يسأله فقال ابن عبدل للسائل:

ألق العصا ودع التحامل والتمس ..... عمـــلاً فهذي دولة العرجان

فـأميــرنا وأميــر شرطتنا معاً ..... يا قــومنا لكليهما رجلان !!

فإذا يكـــون أميــرنا ووزيـــره ..... وأنا ، فإن الرابع الشيطان !!

فبلغت أبياته ذلك الأمير الأعرج فبعث له مائتي درهم وسأله أن يكف عنه.

وقيل: قدم الحكم بن عبدل واسطاً على ابن هبيرة وكان بخيلاً، فأقبل حتى وقف بين يديه فقال:

أتيتـــك في أمر من امر عشيرتي ... وأعلى الأمور المفظعات جسيمها

فإن قلت لي في حاجتي أنا فاعل ... فقد ثلجت نفسي وولت همومها

فقال الأمير: أنا فاعل إن اقتصدت فما حاجتك قال: غرم لزمنا، قال: كم هو قال: أربعة آلاف درهم، قال: نحن مناصفوها، قال: أصلح اللّٰه الأمير، أتخاف علي التخمة إن أممتها قال: أكره أن أعود الناس هذه العادة، قال: فأعطني جميعها سراً وامنعني جميعها ظاهراً حتى تعود الناس المنع ، وإلا فالضرر واقع عليك إن عودتهم نصف ما يطلبون، فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجثا بين

يديه، وقال: امرأتي طالق إن أخذت أقل من أربعة آلاف درهم أو انصرفت وأنا غضبان، فقال: أعطوه إياها قبحه الله فإنه ما علمت حلاف مهين، فأخذها وانصرف.

وقيل لما وقع الطاعون بالكوفة ومات منهم بنو زر بن حبيش العامري صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا ظرفاء وبنو عم لهم، فقال الحكم بن عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بنـــي زر وبعــد ابن جندل ... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض

مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي

وارتحل الحكم بن عبدل ذات مرة مع عمر بن هبيرة إلى واسط فشكا إليه الضيقة فوهب له جارية من جواريه فواثبها ليلة أن صارت إليه تسع مرات أو عشرة ، فلما أصبح الصباح قالت له: جعلت فداك من أي الناس أنت ؟ قال: امرؤ من أهل الشام، قالت: بهذا العمل غلبتم أهل العراق في حربكم.!!

وقال صاحب الأغاني : لما ظفر ابن الزبير بالعراق وأخرج عنها عمال بني مروان أخرج ابن عبدل معهم إلى الشام وكان فيمن يدخل إلى عبد الملك ويسمر عنده فقال لعبد الملك ليلة يا ليت شعري وليت ربما نفعت * هل أبصرن بني العوام قد شملوا

بالذل والأسر والتشـريـــد إنهـم *** على البرية حتف حيث ما نزلوا

أم هل أراك بأكناف العراق وقد *** ذلـــت لعـــزك أعداء وقد نكلوا

فقال عبد الملك بن مروان [ويروون أنه هو قائل هذا الشعر] :

إن يمكن الله من قيس ومن جرش ومن جذام ويقتل صاحب الحرم

نضرب جماجم أقوام على حنـــق ضـــربا ينكـــل عنـــا غابر الأمـم

ودخل ابن عبدل يوما على عبد الملك بن بشر بن مروان فقال أصلح الله الأمير رؤيا رأيتها في المنام أقصها عليك قال هاتها فأنشأ يقول :

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد *** في ساعة ما كنت قبل أنامها

فرأيت أنك جدت لي بوليـدة *** مغنوجة حسن علي قيامهـا

وببدرة حملت إلي وبغلـــــة *** شهباء ناجية يصل لجامهـا

فسألت ربك أن يثيبك جنـــة *** يلقاك منها بردها وسلامهـا

فقال كلما رأيت عندنا إلا البغلة الشهباء الناجية فإن التي عندنا دهماء فارهة

فقال ابن عبدل : امرأتي طالق إن كانت رأيتها إلا دهماء ولكني نسيت !! فأمر أن يحمل إليه كل ما ذكر في شعره !!

وقالوا خطب محمد بن حسان الأسدي ابنة لطلبة بن قيس بن عاصم المنقري وقد كان ابن عبدل الأسدي أتاه وهو وال على خراسان فلم يعطه شيئا فقال يهجوه:

أبـــاع زيـــادٌ ســـود الله وجهـــه ..... عقيلة قـومٍ سـادةٍ بـــالدراهـــــم

لعمرك ما زوجتهـــا من كفـــاءة ..... ولكنمـــا زوجتهـــا للـــدراهـــم

وما كان حسان ابن سعد ولا ابنه ..... أبوالبخر من أكفاء قيس بن عاصم

ولكنـــــه رد الزمـــان على استه ..... وضيـــع أمـــر المحصنات الكرائم

له ريقة بخراء تصرع من دنا ..... وتنـــتن خيشــوم الضجيع الملازم

خذي دية منه تكن لك عــدة ..... وروحي إلى باب الأمير فخاصمي

قالوا: فلما بلغ أهلها شعره أنفوا من ذلك، فاجتمعوا على محمد بن حسان حتى فارقها. قال: وكان محمد بن حسان عاملاً على بعض كور السواد، فسأله ابن عبدل حاجةً فرده عنها، فقال فيه هذا الشعر وغيره وهجاه هجاءً كثيراً. وكانت المرأة التي تزوجها معاذة بنت مقاتل بن طلبة، فلما سمعت ما قال ابن عبدل فيها نشزت على زوجها وهربت إلى أهلها، فتوسطوا ما بينهما وافتديت منه بمال وفارقها.

وحدث النضر بن شميل قال : دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو فقال أنشدني أقنع بيت للعرب فأنشدته قول ابن عبدل :

إنـــي امـــرؤ لم أزل - وذاك ..... من اللّٰه - أديبا أعلم الأدبا

أقيم بالدار ما اطمأنت بي الدا ..... ر، وإن كنت نازحا طــربا

لا اجتوي خلــة الصــديق ولا ..... أتبع نفسي شيئا إذا ذهبا

أطلب ما يطلب الكريم من الرز ..... ق بنفسـي وأجمل الطلبا

إني رأيت الفتــى الكــريم إذا ..... رغبتــه في صنيعــة رغبــا

والعبد لا يطلــب العــلاء ولا ..... يعطيــك شيئا إلا إذا رهبا

مثل الحمار المــوقـع السوء لا ..... يحســن مشيا إلا إذا ضربا

ولم أجد عــروة الخــلائـق إلا ..... الدين لما اختبرت والحسبا

قد يرزق الخفض المقيـم ومــا ..... شــد بعنس رحلا ولا قتبا

ويحرم الرزق ذو المطيــة والـرح ..... ل ومــن لا يــزال مغتربا

قال أحسنت يا نضر. ومن شعر ابن عبدل الذي يستشهدون به على حسن خلقه وعفته قوله :

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ..... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي
وأعسر أحيانا فتشتد عسرتي ..... وأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي

وقالوا: لما وقع الطاعون بالكوفة أفنى بني غاضرة ومات فيه بنو زر بن حبيش الناضري صاحب علي بن أبي طالب، وكانوا ظرفاء، وبنو عم لهم، فقال الحكم بن عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بني زر وبعد ابن جندلٍ ..... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض
مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ..... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي
فقد كان حولي من جيادٍ وسالمٍ ..... كهولٌ مساعيرٌ وكل فتىً بض
يرى الشح عاراً والسماحة رفعةً .....أغر كعود البانة الناعم الغض

وقال أبو الفرج: ونسخت من كتاب أبي محلم قال: سأل الحكم بن عبدل أخو بني نصر بن قعين محمد بن حسان بن سعد حاجةً لرجلٍ سأله مسألته إياها؛ فرده ولم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

رأيت محمداً شرهاً ظلوماً ... وكنت أراه ذا ورعٍ وقصد
يقول أمانتي ربي خداعاً ... أمات الله حسان بن سعد
فلولا كسبه لوجدت فسلاً ... لئيم الكسب شأنك شأن عبد
ركبت إليه في رجلٍ أتاني ... كريمٍ يبتغي المعروف عندي

فقلت له وبعض القول نصحٌ ... ومنــه مــا أسـر لــه وأبــدي
تـــوق دراهـــم البكري إني ... أخاف عليك عاقبـــة التعدي
أقرب كل آصـــرةٍ ليـدنـــوا ... فمـــا يـــزداد منـــي غير بعد
فأقســـم غيـــر مستثنٍ يميناً ... أبـــا بخـــرٍ لتتخمـــن ردي

و حدث محمد بن سهل الأسدي راوية الكميت : أن الحكم بن عبدل الأسدي أتى محمد بن حسان بن سعد التميمي وكان على خراج الكوفة، فكلمه في رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه؛ فقال: أماتني اللّٰه إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً؛ فانصرف ابن عبدل وهو يقول:

دع الثلاثين لا تعرض لصاحبها ... لا بـــارك اللّٰه في تلك الثلاثينا
لما علا صوته في الدار مبتكـــراً ... كأشـــتفان يرى قوماً يدوسونا
أحسن فإنك قد أعطيت مملكـةً ... إمارةً صرت فيها اليوم مفتونا
لا يعطك اللّٰه خيراً مثلها أبـــداً ... أقسمـت باللّٰه إلا قلـت آمينا

قال: فلم يضع له شيئاً مما على الرجل؛ فقال فيه:

رأيت محمداً شرهاً ظلـــومـــاً ... وكنـــت أراه ذا ورعٍ وقصد
يقـــول أماتنـــي ربي خداعاً ... أمات اللّٰه حسان بن سعد
فما صادفت في قحطان مثلي ... ولا صادفـــت مثلك في معد
أقـــل بـــراعـــةً وأشد بخـلاً ... وألأم عنـــد مسئلـــة وحمد
نحـــوت محمـداً ودخان فيه ... كريح الجعر فوق عطين جلد
فـــأقسم غـــير مستثـــنٍ يميناً ... أبـــا بخـــرٍ لتتخمـــن ردي

فلـــو كنـــت المهـذب من تميمٍ ... لخفت ملامتي ورجوت حمدي

نكهـــت علي نكهـــة أخـــدري ... شتيـــم أعصـــل الأنياب ورد

فمـــا يـــدنـــو إلى فمـه ذبابٌ ... ولو طـــليت مشـــافـــره بقنـد

فإن أهديت لي من فيك حتفا ... فإنـــي كالذي أهديـت مهدي

قـال محمـد بـن سـهل: ومـا زال ابـن عبـدل يزيـد في قصيدته هذه الداليـة حتـى مات وهي طويلة جداً. قال: واشتهرت حتى إن كان المكاري ليسوق بغله أو حماره فيقول: عد

أمات اللّٰه حسان بن سعد

فإذا سمع ذلك أبوه قال: بل أمات اللّٰه ابني محمداً، فهو عرضني لهذا البلاء في ثلاثين درهماً.

وقالوا : دعا أبو المهاجر، الحكم بن عبدل ليشرب عنده وله جارية تغني فغنت فقال ابن عبدل:

يا أبا المهاجر قد أردت كرامتي ... فأهنتني وضررتني لو تعلـم

عنـــد التي لو مس جلدي جلدها ... يوماً بقيت مخلداً لا أهرم

أو كنـــت في أحمى جهنم بقعةً ... فرأيتها بردت علي جهنـم

قـال: فجعل أبـو المهـاجر يضـحك ويقـول لـه: ويحك! واللّٰه لـو كـان إليهـا سبيلٌ لوهبتها لك، ولكن لها مني ولدٌ.

وكان عمر بن يزيد الأسدي مبخلاً، ووجده أبوه مع أمةٍ له فكان يعير بذلك وجاءه الحكم بن عبدل الأسدي ومعه جماعة من قومه يسألونه حاجةً، فدخلوا إليه وهو يأكل تمراً فلم يدعهم إليه، وذكروا له حاجتهم فلم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

جـــئنا وبين يديـه التمر في طبقٍ ... فما دعانا أبو حفص ولا كادا

علا على جسمه ثوبان من دنسٍ ... لـــؤم وجـــبنٌ ولولا أيره سادا

وقالوا : كان الحكم بن عبدل صديقاً لبشر بن مروان، فرأى منه جفاءً لشغلٍ عرض له، فغاب عنه شهراً، ثم التقيا فقال: ياابن عبدل، مالك تركتنا وقد كنت لنا زواراً؟ فقال ابن عبدل:

كنـــت أثنـــي عليك خيراً فلما ... أضمر القلب من نوالك ياسا

كنت ذا منصب قنيت حيائي ... لم أقـــل غير أن هجرتك باسا

لم أطق ما أردت بي يابن مروا ... ن ستلقـــى إذا أردت أنـــاسا

يقبلون الخسيـــس منـــك ويثنو ... ن ثنـــاءً مدخمـــساً دخماسا

فقال له: لا نسومك الخسيس ولا نريد منك ثناءً مدخمساً، ووصله وحمله وكساه.

وقالوا : تزوج ابن عبدل امرأةً من همدان فقالوا له: على كم تزوجت؟ فقال:

تزوجت همدانيةً ذات بهجةٍ ... على نمـــط عـــادية ووسائد

لعمري لقد غاليت بالمهر إنه ... كذاك يغالى بالنساء المواجد

قال: فلما دخل بها كرهها فقال:

أعـــاذلتـــي من لومٍ دعاني ... أقـــلا اللـــوم إن لم تعذراني

فإني قد دللـــت على عجوز ... مبرقعـــة مخصبـــة البنان
تغضـــن جلدها واخضر إلا ... إذا ما ضرجـــت بالزعفران
فلما أن دخلـــت وحادثتني ... أظلتنـــي بيـــومٍ أرونـــان
تحدثني عـــن الأزمان حتى ... سمعـــت نـــداء حر بالأذان
فقالت قد نكحت اثنين شتى ... فلمـــا صـــاحباني طلقاني
وأربـــــعةً نكحتهم فماتوا ... فليـــت عريف حي قد نعاني
وقالت ما تلادك قلت مالي ... حمـــــار ظالع ومزادتان
وبـــــوريٌ وأربعـــةٌ زيوف ... وثـــوبا مفلـــسٍ متخرقـان
وقطعـــة جلـــة لا تمر فيها ... ودناً عـــومـــةٍ متقـــابلان
فقالت قد رضيت فسم ألفاً ... ليسمـــع ما تقول الشاهدان
وما لك عنـــدنا ألـــفٌ عتيد ... ولا تســـعٌ تعـــد ولا ثمـــان
ولا سبـــعٌ ولا ســـت ولكن ... لكم عندي الطويل من الهوان

وقد كان الحكم بن عبدل الأسدي منقطعاً إلى بشر بن مروان، وكان يأنس به ويحبه ويستطيبه، وأخرجه معه إلى البصرة لما وليها، فلما مات بشر جزع عليه الحكم وقال يرثيه:

أصبحـــت جم بلابل الصدر ... متعجبـــاً لتصـــرف الدهر
مازلت أطلب في البلاد فتىً ... ليكون لي ذخـراً من الذخر
ويكـــون يسعـــدني وأسعده ... في كـــل نائبـــةٍ من الأمر

حتـــى إذا ظفـرت يداي به ... جاء القضاء بحينه يجري

إنـــــي لفـــي هم يباكرني ... منـــه وهـــم طارقٍ يسري

فلأصبـــرن وما رأيت دوىً ... للهـــم غـــير عزيمة الصبر

واللّه ما استعظمت فرقتـــه ... حتى أحاط بفضله خبري

وخـرج يزيـد بـن عمـر بـن هـبيرة يومـا يسير بالكوفـة فـانتهى إلى مسـجد بـني غاضـرة، وأقيمـت الصـلاة، فنـزل يصـلي، واجتمـع النـاس لمكانـه في الطريـق وأشـرف النسـاء مـن السطوح، فلمـا قضى صلاته قـال: لمن هذا المسجد؟ قـالوا لـبني غاضـرة، فتمثل قول الشاعر:

ما إن تركن من الغواضر معصراً ... إلا فصمن بساقها خلخالا

فقالت له امرأةٌ من المشرفات:

ولقد عطفـــن علـــى فزارة عطفةً ... كـــر المنيح وجلن ثم مجالا

فقال يزيد: من هذه؟ فقالوا: بنت الحكم بن عبدل؛ فقال: هل تلد الحية إلا حية! وقام خجلاً.

وعن ابن عياش قال: رأيت ابن عبدل الأسدي وقد دخل على ابن هبيرة، فقال له: أنشدني شيئاً فقال: أنشدك مقولةً أيها الأمير؟ قال: هات؛ فأنشده هذه الأبيات وهي قديمةٌ وقد تمثل بها ابن الأشعث حين خرج، ويروى أنها لأعشى همدان -

نجـــم ولا نعطى وتعطى جيوشهم ... وقد ملئوا من مالنا ذا الأكارع

وقـــد كلفـــونا عـــدةً وروائعـاً ... فقـــد وأبي رعناكم بالروائع

ونحن جلبنا الخيل من ألف فرسخ ... إليكـــم بمجمر من الموت ناقع

قال: فغضب ابن هبيرة من تعريضه به، وقال به: واللّٰه لولا أني قد أمنتك واستنشدتك لضربت عنقك.

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً على الطعام، فدخل عليه الحكم بن عبدل الشاعر وهو يأكل بطيخاً، فسلم فلم يرد عليه السلام ولم يدعه إلى الطعام؛ فقال ابن عبدل يهجوه.

في عمـــــر يــزيـد خلتا دنسٍ ... بخــلٌ وجـبنٌ ولولا أيره سادا

جئناه يأكل بطيخاً على طبقٍ ... فما دعانا أبو حفصٍ ولا كادا

وكان لعبد الملك بن بشر بن مروان كاتبٌ يقال له محمد بن عمير وكان كلما مدحه ابن عبدل بشيء وأمر له بجائزة دافعه بها وعارضه فيها، فدخل يوماً إلى عبد الملك وكاتبه هذا يساره، فوقف وأنشأ يقول:

ليــتَ الأميرَ أطاعَنِي فشفيتُه ... من كلِّ مَن يُكْفِي القصيدَ ويَلْحَنُ

متــكَوِّرٌ يَحْتُو الكلام كأنَّما ... باتَتْ مناخِــرُهُ بدُهْــنٍ تُعْرَنُ

وبنَي لهم سِجناً فكنتُ أميرَهم ... زَمناً فأضربُ مَنْ أشَاءُ وأسجُــنُ

قل لابنِ آكِلة العِفَاصِ محمَّـدٍ ... إن كنتَ من حبِّ التقرُّب تجبُنُ

أنتَ امرؤٌ في أرضِ أمِّك فلفلٌ ... جَمٌّ وفلفلنا هنــاك الــدِّنــْدِن

فبحقِّ أمِّكَ وهي منك حقيقَةٌ ... بالبــرِّ واللَّطَــفِ الــذي لا يُخْزَنُ

لا تــُدْنِ فاكَ من الأميرِ ونحِّهِ ... حتَّى يُــداوِيَ ما بأنفِــك أهْرَنُ

إنْ كانَ للظَّربــانِ جُحْرٌ منتنٌ ... فلَجُحْــر أنفِــك يا محمَّدُ أنتَنُ

فسَـــلِ الأميـــرَ غيـــرُ موفَّقٍ ... وبَنـُو أبِيـــهِ للفَصاحـــة مَعْـدِنُ
وسَلِ ابنَ دَكْوانٍ تَجِدْهُ عالِمـاً ... بسَليقـــةِ العُـــرْب التي لا تحزُن
إذْ أنتَ تجعَلُ كلَّ يومٍ عفصـةً ... فتجيدُ ما عمِلـــت يَداك وتحسِنُ
أشبهتَ أمَّكَ غيرَ بابٍ واحـــدٍ ... أنْ قد خـُتِنـْتَ وأنـَّها لا تُخْتَـنُ
فلَئِن أصبتَ دراهماً فدفنتَـها ... وفُتِنـــت فيها، وابـــنُ آدَمَ يُفتَـنُ
فبما أراك وأنتَ غيرُ مُدَرْهِـــمٍ ... إذْ ذاك تَقْصِف في القِيان وتزْفِـنُ
إذ رأسُ مَالِكَ لُعْبَـــةً بصـريَّة ... بَيْضَاءُ مُعْرِبَةٌ عليهـــا السَّوْسَـنُ
ألقيتَ نفسَكَ في عَرُوضٍ مَشَقَّةٍ ... ولحَصْدُ أنفِكَ بالمنـَاجِلِ أَهْـوَنُ
أنت امرؤٌ في أرضِ أمِّـكَ فُلفلٌ ... جَـمٌّ وفُلفُلنـــا هُنـــاك الدِّنـْـدِنُ
فبحقِّ أمّك وهي منك حقيقـةٌ ... بالبِـرِّ واللَّطَـفَ الـذي لا يُحْزَنُ
لا تـُدْنِ فاكَ من الأَمير ونحِّـــه ... حتـَّى يُداوِيَ ما بأنـْفِكَ أَهْرَنُ
إن كـــان للظِّربانِ جُحْرٌ مُنتِنٌ ... فلَجُحْر أَنفـــك يا محمَّدُ أنتَـنُ

وعن محمد بن سهل راوية الكميت قال: خطب ابن عبدل امرأةً من همدان يقال لها: أم رياح فلم تتزوجه، فقال: أما والله لأفضحنك ولأعيرنك فقال:

فلا خير في الفتيان بعد ابن عبدلٍ ... ولا في الزواني بعد أم رياح
فأيـــري بحمد الله ماضٍ مجربٌ ... وأم ريـــاحٍ عرضةٌ لنكاحي

وولد للحكم بن عبدل ابنٌ فسماه بشراً، ودخل على بشر بن مروان فأنشده:

سميـــت بشـــراً ببشـــر الندى ... فـــلا تفضحني بتصداقها
إذا مـــا قـــريـــشٌ البـطـــــا ... ح عنـــد تجمـــع آفـاقها
تـــســـامت قرومهـــم للنـــدى ... تبـــاري الرياح بأوراقها
فمـــالك أنفـــع أمـــوالـهـــا ... وخلقـــك أكرم أخلاقها

فأمر له بألفي درهم، وقال: استعن بهذه على أمرك.

وقـالوا : اقـترض ابـن عبـدل مـالاً مـن التجـار وحلـف لهـم بـالطلاق ثلاثـاً أن يقضيهم المال عند طلوع الهلال، فلما بقي من الشهر يومان قال:

قـــد بات همـي قـرناً أكـابده ... كأنما مضجعي على حجر
من رهبةٍ أن يرى هـــلال غـــدٍ ... فـــإن رأوه فحق لي حذري
من فقـــد بيضـــاء غادةٍ كملت ... كأنـــها صـــورةٌ من الصور
أصبحت من أهلي الغداة ومن ... مالـي على مثل ليلة الصدر

فبلغ خبره عبد الملك بن بشر فأعطاهم مالهم عليه وأضعفه له؛ فقال فيه:

لـــمـــا أتـــاه الـــذي أصبت به ... وأنشـــدوه إياه في شعـــري
جاد بضعفي ما حل من غرمي ... عفواً فزالـــت حرارة الصدر
لأشـــكـــرن الـــذي مننت به ... ما دمت حياً وطال لي عمري

وقـال محمد بن سهل: اجتمع الشعراء إلى الحجاج وفيهم ابن عبدل، فقالوا للحجاج: إنما شعر ابن عبدل كله هجاءٌ وشعرٌ سخيف؛ فقال له: قد سمعت قولهم فاستمع مني؛ قال هات فأنشده قوله:

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي

وأعسر أحياناً فتشتد عسرتي ... فأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي

حتى انتهى إلى قوله:

ولست بذي وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي

فقال له الحجاج: أحسنت! وفضله في الجائزة عليهم بألفي درهم.

وقال ابن عبدل أيضاً:

نَـجَوت محمداً ودخـانُ فيـه ... كريح الجَعْر فوقَ عَطِين حِلْدِ

ركبـتُ إليـه في رَجُلٍ أتاني ... كـريمٍ يطلبُ المعروفَ عِندي

فقلـتُ لـه ولم أعجَل عليه، ... وذلكَ بعـدَ تقريظي وحَمْدي

فأعْـرَضَ مُكْمَحاً عنّي كأنـي ... أكَلِّمُ صَخْـرَةً في رأْس صمْـدِ

أقـرِّبُ كـل آصِـرَةٍ ليدنـو ... فمـا يزْداد منّي غيرَ بُعْـدِ

فأقسِمُ غيـرَ مستثـنٍ يميناً ... أبـا بَحْـرٍ لتتَّخِمَـنَّ رَدِّي

فلـو كنتَ المهذبَ مـن تميم ... لخفتَ ملامَتي ورجوتَ حَمدي

نَـجَوتُ محمداً فوجدتُ ريحاً ... كريـح الكلبِ ماتَ قريبَ عَهْدِ

وقد أَلْذعتَـنِي ثعبانَ نَـتْـنٍ ... سيبلـغ إنْ سـلِمْنا أهلَ نَـجْدِ

وأدنَـى خَـطْمَه فودِدتُ أنّي ... قَرَنْـتُ دونـوَّه منـي ببُعْـدِ

كما افتَـدَتِ المعاذةُ من جَواهُ ... بخِـلْعَتها ولم تَـرجِع بزَنْـدِ

وفارقَـها جـواه فاستراحَتْ ... وكـانتْ عنـدَه كـأسيرِ قِدِّ

وقد أدنيتُ فاه إليَّ حتَّـى ... قتلـتُ بـذاك نفسي غيرَ عَمْدِ

وما يدنـُو إلى فيـــه دُبابٌ ... ولو طُليـــت مَشـــافِـرُه بقَنـْد
يَـدُقـــن حلاوةً ويَخفْن موتاً ... زعـــافـــاً إنْ همَمْـــنَ له بِـــوردِ
فلمـــا فاحَ فُوه عليّ فَوْحـــاً ... بمثـــل غَثِيثـَـةِ الدَّبِـــر المُغِـــدِّ
فقلـــت له: تنحَّ بفيك عنِّي ... فمـــا هـــذا بريحِ قُتـَارِ رَنـْدِ
ومـــا هـــذا بـــريح طِلاً ولكنْ ... يفـــوحُ خِـرَاكَ منـــه غير سَرْدِ
فحدِّثـْنِي فإنَّ الصِّـدقَ أدنى ... لبابِ الحـــقِّ من كـــذِب وجَحْدِ
أبـــاتَ يجـــولُ في عَفَجٍ طحور ... فأعلـــم أمْ أتـــاكَ به مُغـَـــدِّي
نكِهـــتَ علـــيَّ نكهةَ أخدَريٍّ ... شتيـــمِ أعصـــلِ الأنيـــاب وَرْدِ
فإن أهديتَ لي من فيكَ حتـْفي ... فإنِـّي كالـــذي أهديـــتَ أهدي
لكم شُـــرُداً يَسـرِن مغنِّياتٍ ... تكونُ فنونـــُها من كـــل فِنـــدِ
أمـــا تخزَى حَزِيت لها إذا ما ... رَوَاها النَّاسُ من شِيـــبٍ ومُرْدِ
لأَرجُو إن نجوت ولم يُصبْنـــي ... جَوًى إنـِّي إذن لَســـعيد جدِّ
وقلتُ له: متى استطْرفْتَ هذا ... فقال أصابني من جَوفِ مَهْدِي
فقلـــت لـه: أما دَاويتَ هذا ... فتعـــذر فيـــه آمـــالا بجَهْـدِ
فقـــال: أمَـــا علمت له رِقَاءً ... فتســـديَه لنا فيما ستـُسْـدي
فقلـت له: ولا آلـــوه عيـــا ... لـــه فيمـــا أســـرُّ له وأُبدي
عليـــكَ بقيئـــةٍ وبجَعْرِ كَلْبٍ ... ومثليْ ذاك من نـــونٍ كَنـَعْدِ
وحِلتيـــتٍ وكُـــرَّاثٍ وثـُـــومٍ ... وعُـــودَي حَرْمَـــلٍ ودِماغِ فَهْـدِ

وحَنْـجَرَةِ ابنِ آوى وابنِ عِرسٍ ... ووزنِ شَعيـرةٍ مـن بَزْرِ فَقْـدِ
وكَـفٍّ دُرُحْـرُحٍ ولسانِ صَقرٍ ... ومثقالين من صـوّانِ رَقْـدِ
يُـدَقُّ ويُعجَـن المنخول منه ... ببـولٍ آجِـن وبجَعْـرِ قِـرد
وتدفِنُـه زمـانـاً في شـعـيرٍ ... وترقبـه فـلا يَبـدُو لبَـرْدِ
فـدخِّـن فاكَ ما عتَّقت منه ... ولا يعجـن بأظفـار ونـَدِّ
فـإنْ حضَرَ الشتاءُ وأنتَ حيٌّ ... أراك اللّهُ غَيَّـكَ أمـرَ رشدِ
فـدَحْرِجْـها بنادِقَ وازدردْها ... متـَى رُمْـتَ التكلُّم أيّ رَرْدِ
فتقـذف بالمِصَـلِّ على مِصَلٍّ ... ببلعـوم وشِـدْقٍ مُسْمَـعِدِّ
وويْـلَك ما لِبَطْنِـك مدْ قعَدْنا ... كـأنّ دويَّـهُ إرزام رَعـد
فـإنَّ لحِكَّـةِ الناسور عندي ... دواءً إن صبرتَ له سيُجـدِي
يُميـت الدُّودَ عنـكَ وتشتهيه ... إن انت سَنَنْتَـهُ سنَّ المقَدِّي
به، وطليتَـه بأصـولِ دِفْلَى ... وشـيءٍ من جنَى لَصَفٍ ورَنْدِ
أَظُنّـي ميِّتاً مِنْ نَتْن فيـهِ ... أهـانَ اللّهُ من ناجَاهُ بَعْدِي

وقيل لِعَلُّويه كلبِ المطبخ: أيُّ شيءٍ معنى قولهم: هذا نبيذٌ يمنع جانِبَه؟ قال: يريدُون أن الدّبَّان لا يدنو منه، وكان الرّقاشي حاضراً فأنشدَ قول ابن عبدل:

عَشَّـشَ الْعَنكَبُـوت في قَعْـرِ دَنـِّي ... إنَّ ذا مِـنْ رَزِيِّـتي لَعَظِـيمْ
لَيـتني قـد غَمَـرْتُ دَنـي حتـَّى ... أُبْصِـرَ العَنْكبُـوتَ فيـهِ يَعُـومْ
غرقًـا لا يُغيثُـه الـدَّهْر إلاَّ ... زَبَـدٌ فـوقَ رأسِـه مركـومْ
مخرجًـا كفَّـه ينـادي ذبابًـا ... أن أغثـْني فإنـَّني مَغْـمومْ

قــال: دَعْــني فَلَــنْ أُطِيــقَ دُنــوًّا ... مــن شَــرابٍ يشَــمُّهُ المزكــومْ

قال الجاحظ في كتاب الحيوان بعد أن ذكر تلك القصة : والدِّبَّان يضرَب به المثلُ في القَدَر وفي استطابة النَّتْن، فإذا عَجزَ الدُّبابُ عن شمِّ شيءٍ فهو الذي لا يكون أنتنُ منه.

ولذلك حينَ رمى ابنُ عبدلِ محمَّدَ بن حَسَّان بنِ سعْد بالبخر، قال:

ومــا يدنــُو إلى فيــهِ ذبــابٌ ... ولــو طُلِيَــتْ مَشــافِرُه بقَنْــد

يَــرَيْنَ حــلاوةً ويخفْــنَ مَوتــاً ... وَشِــيكاً إنْ هَمَمْــنَ لــه بــوِرْد

وقال ابن عَبدَل في الفأرة والسنَّور:

يــا أبــا طلحــةَ الجــوادَ أغــثني ... بسجالي مــن سـيبك المقسـوم

أحـي نفسـي فـدتك نفسـي فـإني ... مفلــسٌ قــد علمــتَ ذاك عــديم

أو تطــوعْ لنــا بســلفِ دقيــق ... أجــرُه إن فعلــتَ ذاك عظــيمْ

قــد علمتــُم فــلا تعــامس عنــِّي ... مــا قضــى اللّٰه في طعــام اليتــيم

[أراد: لا تعامَسُوا، فاكتفى بالضمة من الواو، وأنشد:

فلــو أنَّ الأطبَّــاء كــان حــولي ... وكــان مــع الأطبــاء الأســاة]

لــيس لــي غــيرُ جــرة وأصــيص ... وكتــابٍ منمــنمٍ كالوشــوم

وكســاء أبيعــه برغيــفٍ ... قــد رقعنــا خروقــه بــأديمْ

وإكــاف أعارنيــه نَشِــيطٌ ... هــو لحــافٌ لكــلِّ ضــيف كــريمْ

ونبيــدٍ ممــا يبيــع صُــهيبٌ ... يــذر الشــيخَ رمحــه مــا يقــومْ

ربِّ حـلا فقـد ذكـرتُ أصيصـي ... ولحـافي حتـى يغـورَ النجـومْ
كـل بيـت عليـه نصـفُ رغيـف ... ذاك قسـمٌ علـيهمُ معلـومْ
فـر منـه موليـا فـارُ بـيتي ... ولقـد كـان سـاكناً مـا يـريمْ
قلـتُ: هـذا صـومُ النصـارى فحلـوا ... لا تليحُـوا شـيوخَكم في السَّـمومْ
ضـحكَ الفـأرُ ثـم قلـن جميعـاً ... أهـو الحـقُّ كـلَّ يـومٍ تصُـومْ
قلـتُ: إن الـبراء قـد قـامَ في ال ... نـاسِ بـإذنٍ وأنـتَ فينـا ذميـمْ
حملـوا زادهـم علـى خنفسـات ... وقـراد مخـيس مزمُـومْ
وإذا ضـفدعٌ عليـه إكـاف ... علمـوه بعـد النفـار الرسـيمْ
خطمـوا أنفـهُ بقطعـة حبـل ... يـا لقـومي لأنفِـه المخطُـومْ
تصـبُوا منجنـيقهم حـولَ بـيتي ... يـا لقـومي لبـيتيَ المهـدومْ
وإذا في الغبـاء سـمٌّ بُـرَيص ... قـائمٌ فـوقَ بيتنـا بقـدومْ
قلـتُ: بيـتُ الجـرينِ مجمعُ صدق ... كـان قـدماً لجمعكـم معلـوم
قلـنَ: لـولا سـنورتاهُ احتفرنـا ... مسـكناً تحـتَ تمـرهِ المركـوم
إن تـُلاقِ سنورَتـَاهْ فضـاءً ... تـذرانا وجمْعُنـا كـالهزيمْ
عشـشَ العنكبـوت في قعـر دنـى ... إن ذا مـن رَزِيـتي لعظـيم
ليـتني قـد غمـرت تـدنى حتـى ... أبصـرَ العنكبـوتَ فيـه يعـومْ
غرقـاً لا يغيثـه الـدهرَ إلا ... زبـدٌ فـوقَ رأسـهِ مركـوم

وكان الحكمُ بن عبدل أعرجَ، وكان بعد هجائه لمحمد بن حسَّان بنِ سعد بالقصيدة الدالية الشهيرة السابقة لا يبعث إلى أحدٍ بعصاه التي يتوكأ عليها وكتبَ عليها حاجَته إلاّ قضاها كيفَ كانت، فدخل على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أميرُ الكوفة، وكان أعرجَ، وكان صاحبُ شُرطته أعرَج فقال ابن عَبْدَل:

ألقِ العَصَا ودَعِ التَّعَارجَ والتمِسْ ... عملاً فهذي دَولَةُ العُرجانِ

فأميرنُا وأميرُ شُرطِتنَا مَعاً ... يا قومنا لكليهما رِجلان

فإذا يكونُ أميرنُا ووزيرُه ... وأنا فإنّ الرَّابعَ الشيطانُ

وقال آخر ووصف ضَعفه وكِبَر سنِّه:

آتِي النديَّ فلا يُقرَّب مجلسي ... وأقودُ للشرَف الرفيع حمارِيا

وقال ابن عبدل في بشر بن مروان بن الحكم:

ولو شاء بشر كان من دون بابه ... طماطم سود أو صقالبة حمر

ولكن بشراً أسهل الباب للتي ... يكون لبشر عندها الحمد والأجر

بعيد مراد العين ما رد طرفه ... حذار الغواشي باب دار ولا ستر

وقال ابن عَبدلٍ:

نِعمَ جَارُ الخنزيرة المُرضع الغَرْ ... ثَى إذا ما غَدَا، أبو كلثومِ

طاوياً قد أصابَ عند صديقٍ ... من غِذاء مُلبَّقٍ مأدومِ

ثمَ أنحَى بجَعرِه حاجِب الشَّمْ ... سِ فألقَى كالمِعلفِ المهدومِ

وقال ابن عبدلٍ الأسدي

بينـــا هـــم بـــالظهر قـــد جلســـوا يومـــاً بحيـــث ينـــزع الـــذبح

فـــإذا ابـــن بشـــر في مواكبـــه تهـــوى بـــه خطـــارة ســـرح

فكأنمـــــا نظـــــروا إلى قمـــــر إو حيـــث علـــق قوســـه قـــزح

obeikandl.com

الشاعر الجاهلي خفيف الظل :

علباء بن أرقم

كان علباء بن أرقم اليشكري الشاعر الجاهلي معاصراً للملك النعمان بن المنذر، وكان النعمان قد أحمى كبشاً ، أي أذاع في الناس أن هذا الكبش يرتع ما شاء أينما شاء في حمى النعمان ، وحدث مرة أن ألقت الأقدار هذا الكبش في طريق علباء فذبحه وأكله ، وعرف النعمان ذلك فغضب وتوعد علباء ، فلما بلغ ذلك علباء اغتم كثيرا ثم اهتدت نفسه إلى حيلة طريفة ، وهي مدح الملك النعمان بقصيدة فيها اعتذار خفيف الدم ، فصنع قصيدته هذه وبدأها بوصف لحياته الزوجية المضطربة الحافلة بالشجار، فلم يكن علباء من السعداء في حياتهم الزوجية وكعادة الشعراء الجاهليين ، يقص علينا في قصيدة أخرى كيف أن زوجته "تماضر" هجرت منزله ، وسارت غضبى إلى بيت أبيها في منطقة تسمى "فلجا" بينما يقيم هو وأهله في منطقة "اللوى" ، وزعمت أنه لا خير فيه، وأن أبناءها منه سوف يعوضونها بعد وفاته حياة خيراً من حياتها معه :

حلت تماضر غربة فاحتلَّتِ ... فَلْجاً وأهلُك باللِّوى فالحِلَّتِ

وكأنما في العين حب قرنفل ... أو سنبلاً كحلت بها فانهلتِ

إن عينه لتهطل بالدموع حتى لكأن فيها حب قرنفل أو سنبلاً ، وقد أفاض الشراح في تأويل نصب حب قرنفل، وقالوا إن السنبل نبات طيب الرائحة غير أن السياق يقتضي أن يكون حب القرنفل والسنبل مما يؤذي العين لأن الشاعر يريد في

obeikandi.com

هذا البيت أن يصف لنا غزارة دمعه المذروف على فراق زوجته ، فلابد أن يكون النبات الذي اختاره مما يساعد على ذرف الدموع كما هو الحال مع بعض التوابل .

زعمت تماضر أنني إما أَمُتْ يسدد أبينوها الأصاغر حَلَّتي

إن زوجته تزعم أن أبناءها سيسدون الفراغ الذي سيتركه إذا مات ، وهو يأتي بكلمة "أُبَيْنُوها" تصغيراً لأبنائها كنوع من الاستهزاء والسخرية.

ثم يعاتب زوجته عتاباً رقيقاً ويذكرها -بعد أن يدعو لها بالثراء والغنى- بأنه كان وفياً لقومه إذا أيسر وإذا أعسر ، وبأنه كان يقي قومه المعضلات الشداد مهما تعظم وبأنه فارس محارب :

تربت يداك، وهل رأيت لقومه مثلي على يسري وحين تعلتي

يوماً إذا ما النائبات طرْفَنَنَا أكفي بمعضلةٍ وإن هي جلتِ

ومناخِ نازلة كفيتُ وفارس نهلت قناتي من مطاة وعَلَّتِ

ثم يذكرها بأنه كان يسرع إلى التضحية بالنوق العشار إذا لاحظ أن الضر أو الجوع قد مس الفقراء ، وهو يذكرها بهذه الصفات في لغة غليظة يلتزمها الشعراء الجاهليون حين يتحدثون عن النوق والنحر :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعجلت نصب القدور فَمَلَّتِ

دَرَّتْ بأرزاق العيال مغالقٌ بيديَّ من قمع العشار الجلةِ

[ملت : أي شوت الخبز أو اللحم في الملة أي الرماد الحار ، العيال : الفقراء ، المغالق : قداح الميسر ، القمع : جمع قمعة وهي أعلى سنام الإبل ، الناقة العشراء : أي التي مر على حملها عشرة أشهر ، الجلة : العظام الكبار .]

ثم يتحدث الشاعر عن تدخله للصلح بين عشيرته ، وكيف أنه بهذا التدخل قد كفى عشيرته الدواهي الكبار والصغار :

ولقد رّأَيتُ ثـأَيَ العشيرة بينها وكفيت جانبها اللُّتيَّا والتي
وصفحت عن ذي جهلها ورفدته نصحي ولم تُصب العشيرة زلتي
وكفيتُ مولاي الأحمَّ جريرتي وحبستُ سائمتي على ذي الخلة

إنه يتجاوز عن حقه إذا أخطأ أحد في حقه ، بل إنه يبذل له النصح حتى لا يتكرر منه الخطأ ، ثم إنه يحاول تجنيب قومه آثار خطئه ، فإذا أخطأ لم يصب عشيرته من خطئه ما يؤذيهم . ويتحمل وحده نتائج جريرته إذا بدرت منه جريرة.

ويعود فيذكر في آخر شطرة أنه قد نذر إبله وأنعامه ليطعمها البائس الفقير ومن به حاجة إليها. إن علباء في هذه القصيدة يتفاخر بأمجاده، وكأنه يستدر عطف زوجته الناشز كي تعود إليه، ولكننا نحس من قصيدته الثانية شيئاً آخر، إنه يعتذر إلى النعمان بن المنذر عن خطئه في حق كبشه المحمي، وهو يقدم لهذا الاعتذار بصورة لبيت مضطرب : زوجة مشاكسة، لا تنام ولا تريد لزوجها أن ينام، زوجة غضوب لا تريح ولا تستريح، تعذب زوجها بتوزع عواطفها بين الرضا حيناً والغضب حيناً آخر، فيوم ترضى يرى منها زوجها وجهاً حسناً وسيماً قسيماً كوجه ظبية ذات جيد مبسوط تمده في مرح ورضا لتنال به بغيتها من الشجر، وهي يوم تغضب تدعي أمام جيرانها أنه ظالم وأن أباه ظالم وتريد أن تقتسم معه ماله لتضمه إلى مالها، فإذا أبى ذلك عليها ظلا يتعاركان طوال الليل، يستمع الجيران إليهما وهما يتبادلان الشد والجذب والأيمان المغلظة:

ألا تكلمـا عِرْسِـي تصـد بوجههـا ... وتـزعم في جاراتهـا أنَّ مـن ظَلَـمْ:
أبونـا، ولم أظلـم بشـيء عملتـه ... سوى ما تَـرَيْنَ في القَذالِ من القدمْ
فيومـاً تُوافينـا بوجـه مُقَسَّـم ... كـأن ظبيـة تعطـو إلى وارف السَّلْمْ
ويومـاً تريـد مالنـا مـع مالهـا ... فـإن لم نـُنِلْها لم تـُنِمْنا ولم تَنَـمْ
نبيـتُ كأنـَّا في خـُصومٍ عَرَامـةٍ ... وتسـمعُ جـاراتي التـَّأَلِّيَ والقَسَـمْ

ويسخط علباء على زوجه، ويبلغ به السخط مدى بعيداً، فيحذرها تحذيراً واضحاً ويهددها تهديداً سافراً بترك المنزل، ويقول لها فيغلظ في القول ويؤكده لئن لم تنتهي أيتها الزوج المشاغبة لأجزينك جزاء تندمي عليه، ولآخذن إبلي وأرتحل عنك وستخسرين بذلك رجلاً شجاعاً كريماً في عسره ويسره:

فقلـتُ لهـا إن لا تَنـَاهَيْ فـإنني ... أخو النـُّكْرِ حتى تقرعي السنَّ من نَدَمْ
لَتَجْتَنِبَنْكِ العيسُ خُنْساً عُكُومُها ... وذو مِـرَّةٍ في العسـر واليسـر والعَـدَمْ

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته رأى ابتسامة هادئة تتسلل إلى وجه الملك النعمان، ولعل الملك طرب لهذا الوصف الساخر لحياة الشاعر الزوجية ومشاغباته اليومية مع زوجته، أفيكون من اللائق بالملك إذاً أن يعذب هذا الإنسان بسبب كبش اصطاده؟ أفلا يكفيه ما هو فيه من عذاب يومي في منزله؟ إن الشاعر قد تسلل في رشاقة وظرف إلى نفسية الملك السمح الذي يفد إليه الشعراء من كل فج عميق . . إن الشاعر يوجه خطاباً إلى جموع الحاضرين في مجلس الملك ويسألهم مستنكراً: هل رأيتم قبل ذلك ملكاً كريماً جليلاً من قبيلة "معد" العظيمة يعذب

واحداً من مواطنيه الفقراء؟ وفيم؟ في كبش يسير عابثاً لا حارس معه، ولا قطيع ينتمي إليه؟

وأيُّ مليكٍ من مَعَدٍّ – عَلِمْتُمُ -يُعَذِّبُ عبداً- ذي جلالٍ وذي كرمْ
أمن أجل كبش لم يكن عند قريةٍ ولا عند أذوادٍ رِئَاعٍ ولا غَنَمْ؟

إن هذا الكبش استفز علباء، فهو يسير مختالاً متباهياً مغروراً كأنه لا يرى أحداً ينافسه، فهو يقطع الأرض طولاً وعرضاً ينال من النبات ما يستهويه، وإن علباء ليأخذه العجب من هذا الكبش المغرور المتخايل، فيقسم أنه تحير في أمره أيكون هذا الكبش مخموراً فهو يمشي هذه المشية الاستفزازية؟ إن علباء يشعر بالجوع الشديد، ويبدو أن مظهر الكبش المتلئ الوحيد الذي لا يقربه أحد من الناس خشية غضب الملك، وأن مظهره أغرى به علباء فتاقت نفسه إلى ذبح هذا الكبش الشارد ويطعم لحمه من معه من الرفاق وكلهم جائعون:

يُمَشِّي كأنْ لا حَيَّ بالجزع غيرُه ويعلو جراثيم المخارمِ والأَكَمْ
فواللّهِ ما أدري وإني لصادقٌ أمن حَمَرٍ يأتي الطِّلالَ أم اتَّحَمْ
بصرت به يوماً وقد كاد صحبتي من الجوع ألا يبلغوا الرَّجْمَ مِ الوَحَمْ

ثم إن علباء بن أرقم يصف لنا في ثلاثة أبيات غلاظ شداد كيف كان ذبح ذلك الكبش وما الأدوات التي استخدمها في إنضاجه، فيذكر لنا الحطب الكثير والسكين الحادة القاطعة، والخشبتين اللتين تستقدح بهما النار، والقدر التي أنضج فيها لحم الكبش ورائحتها التي تجتلب الكلاب:

بـذي حطـب جَـزْلٍ وسـهل لِفائِـدٍ ومــبراةِ غــزَّاءٍ يُقــال لهــا هُــدَمْ
ورَنْــدَيْ عَفَــارٍ في الســلاح بقــادح إذا شئت أوري قبل أن يبلغ السأَمْ
وقِــدْرٍ يُهــاهِي بــالكلاب قَتَارُهــا إذا خـف أيسـارُ المسـاميح واللَّحَـمْ

ثم إنه يشير إلى أن أصحابه حذروه من صنيعه ذاك، على الرغم مما بهم من جوع وتشاءموا من فعلته، وذكروه بأحمر عاد، وهو رجل يقال له قدار بن سالف وإرم هي المدينة التي كان يسكنها ثمود -وأحياناً يطلق على ثمود "عاد الأخيرة" تفريقاً بينها وبين عاد الأولى قوم هود- وكان لقوم ثمود (أو عاد الأخيرة) ناقة قد حرم الله عليهم الاعتداء عليها وحذرهم نبي الله صالح عليه السلام من المساس بها فعقرها قدار بن سالف فأهلك الله قوم ثمود بسببها، والرواة يقولون أحمر عاد ويقصدون أحمر ثمود وهو قدار هذا، ويعود الفضل إلى المبرد في توضيح هذا اللبس والإشارة إلى إطلاق اسم عاد الثانية على ثمود في قصة الناقة المشهورة.

وقد ورد هذا البيت الذي أشار فيه علباء إلى ذلك :

وقــال صِـحَابي إنَّـك اليـوم كـائنٌ علينــا كمــا عَفَّــى قُــدارٌ علــى إِرَمْ

وفي رواية الأصمعي ورد هذا البيت قبل البيت الثالث في الأبيات الثلاثة السابقة ولكنا نميل إلى ترتيب الأبيات الأربعة على هذا النحو الذي أوردناه مراعاة للسياق، ولا نشك في أن ما حدث هو محض خطأ من الرواة والنساخ.

ونحن نستنتج من هذا البيت أن علباء كان قبل أن يعقر الكبش عالماً بأنه محمي للملك النعمان، وعلى ذلك يكون مرتكباً لجنايته تلك مع سبق الإصرار كما يقول أصحاب القانون. ولعله كان من الشهرة في المرح والدعابة بحيث يثق في

سماحة الملك مع أمثاله من الشعراء، ولعله كان يعرف طبيعة الملك ولا يشك في أن فيها متسعاً للعفو، وقد قدمنا أنه اختار أنموذجاً من خلافاته الزوجية الشائقة ليكون مفتتحاً لقصيدته الاعتذارية أمام الملك، فهو إذاً صاحب شخصية مميزة، لم يعتذر للملك اعتذاراً مهيناً كما فعل النابغة الذبياني ولم يبدأ قصيدته بوصف الأطلال كما كان يفعل معاصروه من الجاهليين.

لكنه يقول إنه كان جائعاً، وكان رفاقه جياعاً، ومر بهم هذا الكبش يتهادى ويتخايل فاستفزهم فنحروه وأشبعوا جوعهم، وحين عرفوا أن الكبش محمي للملك، ثار فيهم علباء زاجراً، وهل يغضب الملك من أجل كبش أكله جائع من رعاياه؟ إن التخويف بالملك مبالغة فظة مجافية للخلق الكريم لأن فيها تعريضاً لا يليق بالملوك، فليس الملك بخيلاً مغلول اليد، وليس المجني عليه عمَّاً ولا خالاً للملك: ألم نقل إن علباء رجل يحب الهزل؟!

أُخــوَّف بالنعمــان حتــى كأنمــا ... قتلتُ له خالاً كريماً أو ابن عمْ؟!!

وإن يَــدَ النعمــان ليســت بِكَــزَّةٍ ... ولكــن سمــاء تمطــر الوبْــل والــدِّيَمْ

ولعل الملك أغرق في الضحك حين بلغ الشاعر هذا المبلغ من قصيدته، ولعل الملك تذكر حينئذ أخواله وأبناء عمومته، وتذكر كرم يده وسخاءها، وبره بالشعراء وحنوه عليهم.

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته، ورأى ابتسام الملك أو ضحكه يريد أن يتمادى في غيه، فهو يعود إلى وصف حالته النفسية حين رأى هذا الكبش السمين الشارد، وهو يعاني من الجوع، ورفاقه يعانون الجوع، ويمعن الكبش في

استفزاز هؤلاء القوم الجوعى، وكأنه يهزأ بهم ويسخر منهم فيثير التراب برجليه ليعلو وجوههم الناحلة المغبرة، وليتسرب إلى حلوقهم الجافة الساخطة في حين يرتع ذلك الكبش ويأكل ويشرب مما يحلو له من نبت وماء إن الشاعر هنا يقول إنه كان مسلوب الإرادة إزاء هذا الاستفزاز، حتى لكأنه في حالة دفاع شرعي عن النفس كما يقول أصحاب القانون أيضاً:

لبستُ ثياب المقتِ إن آب سالماً ولم أفنْه، أوأن أُجَرَّ إلى الرَّجَمْ

وفي هذا البيت الأخير صورة نفسية رائعة لهذا الكبش وللشاعر، فالكبش ساهٍ لاهٍ عابثٌ يثير الترب برجليه على الشاعر وكأنه يتحداه، والشاعر جائع ظامئ مغبر تكاد روحه تبلغ الحلقوم، أو تكاد تخرج فعلاً منه من ألم السفر وألم الجوع وألم العبث الذي يعبثه هذا الكبش:

يثير على التربَ فَحْصاً برجله وقد بلغ الدَّلْقُ الشواربَ أوْ نَجَمْ

أما الذلق فهو الحد، وأما الشوارب فمجاري النَّفَس، ثم ينهي الشاعر قصيدته بوصف إلية الكبش الضخمة، وكيف ذبحه ويصف لنا عملية الذبح وخروج الدم من الحلق وتقطيعه للكبش وطهيه، ثم يقول إنه فاز هو ورفاقه باللحم وفازت الذئاب والطيور الجارحة بما تبقى من عظامه ورأسه:

له إليةٌ كأنها شطُّ ناقةٍ أَبحُّ إذا ما مُسَّ أبهرُه نجَمْ
وقطعته باللوم حتى أطاعني وألقى على ظهر الحقيبة أوْ وَجَمْ
ورحنا على العبءِ المعلق شلوه وأكرعه، والرأس للذئب والرخمْ
مواريث آبائي وكانت تريكةً لآل قُدار صاحب الفطرِ في الحُطَمْ

ونحن لا نجد معنى لهذا البيت الأخير الذي يصف فيه هذه الفعلة بأنها من فعال آبائه التي يفخر بحفاظه عليها، إذْ إن المجال ليس بمجال فخر في مواجهة الملك، بل مجال اعتذار وأسف.

وأغلب الظن أن في القصيدة أبياتاً ضائعة، أو لعل هذا البيت الأخير دخيل عليها، أو لعل في ترتيب أبيات القصيدة اضطراباً على النحو الذي أشرنا إليه عند قوله :

وقال صِحَابي إنَّك اليوم كائنٌ علينا كما عَفَّى قُدارٌ على إِرَمْ

على أن هذا الرأي لا يغض من قيمة القصيدة بوصفها تحفة فنية شائقة ولوحة شعرية خفيفة الظل، متجددة العطاء.

obeikandl.com

هذا الشاعر الرائع الجميل.. ابن الحمارة !!

نحن اليوم ضيوف على مجلس شاعر عجيب الشأن، فهو شاعر مجيد فى شعره غاية الإجادة، وهوموسيقي ملحن يهتم بفنه كل الاهتمام، وهو رجل دولة بلغ مرتبة الوزارة، ومع ذلك كله تغافل عنه المؤرخون واضطربوا فى شأنه فلم يذكروا لنا عنه إلا نتفاً يسيرة، إلا أنهم اتفقوا على شئ واحد هو هذا الاسم الغريب العجيب الذى يذكرونه به (ابن الحمارة)!!

ترجم له ابن سعيد المغربى فى كتاب (المغرب فى حلى المغرب) [٢/١٢٠- ط دار المعارف- الترجمة رقم ٤٣٦] فذكر أنه كان تلميذاً لفيلسوف الأندلس الشهير ابن باجه وأن اسمه (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطى،ويروى له رثاء فى أستاذه ابن باجة الفيلسوف لما مات، فقد وقف ابن الحمارة على قبره راثياً بقوله:

يا صاحب القبر القريب ودونه ... هم تبيت له الكواكب تسهر
قم- إن أطقت- وهات عن صور الردى ... خبراً، فقد عانيت كيف تصور
واخبر عن الملكوت كيف رأيته ... إن الغريب عن الغرايب بخبر

وفى تحقيقه لكتاب ابن سعيد المغربى نقل الدكتور شوقى ضيف فى ترجمة ابن الحمارة أن الضبى ترجم له فى البغية (ص٥١٧) وقال عنه: شاعر مجيد خبيث الهجاء ذكره الفتح فى كتاب "المطمح" واستدرك الدكتور ضيف على هذا النقل أن كتاب المطمح المطبوع لم ترد فيه ترجمة لابن الحمارة.

وقد ترجم لابن الحمارة كذلك المقرى فى "نفح الطيب" نقلاً عن ابن سعيد إلا أنه دعاه أبا الحسين علياً بن الحمارة- كما يقول د. ضيف، وذكره ابن دحية فى "المطرب" ودعاه الوزير أبا عامر بن الحمارة، وذكره الصفدى فى الوافى بالوفيات ودعاه أبا بكر بن الحمارة (٢/٢٤٢).

وخلاصة هذه النقول والتراجم أننا أمام شاعر لا خلاف على إجادته الشعر ولكن الخلاف فى اسمه وكنيته فبعضهم أخفى اسمه واكتفى بكنيته وجعلها (أبا عامر) وبعضهم صرح باسم له هو (على) وجعل كنيته (أبا الحسين)، وأحدهم لقبه بالوزير، ولكن أحداً لم يذكر لنا سنة مولده ولا سنة وفاته. إلا أن ابن سعيد فى المغرب نسبه إلى غرناطة فقال (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطى) وذكر أنه كان يعمد للشَّعْراء (بفتح الشين المشددة وسكون العين: بمعنى الروضة ذات الشجر الكثير) فيقطع العود من الشجرة بيده فيسويه ويصنع منه عوداً للغناء، وكان ينظم الشعر، ويلحنه،ويغنيه، فنحن إذا أقام شاعر وملحن موسيقى هاو يحب فنه ويخلص له، هذه أول ناحية نلمسها فى شخصيته، والناحية الثانية أنه إنسان ودود يحب الناس ويحبونه، ونستنتج ذلك من نوعين من شعره: أولهما شعره فى رثاء أستاذه الفيلسوف ابن باجة وقد ذكرناه سابقاً، وثانيهما شعره فى رثاء زوجته حين ماتت فرثاها قائلاً:

ولما أن حللت الترب قلنا ... لقد ضلت مواقعها النجوم

ألا يا زهرة ذبلت سريعاً ... أضن المزن؟ أم ركد النسيم ؟

فالرثاء دليل الوفاء، والوفاء مقرون بالتواد والتحاب بين الناس، والنوع الثانى من شعره الذى نستنتج منه أنه كان ودوداً محباً محبوباً بين الناس شعره فى الإخوانيات وما يرتبط بها من مناسبات، فمن ذلك ما روى من أن امرأة مشهورة بجمالها أهدت إليه مسكاً فقال:

أتانا فتيت المسك يعبق عرفه ... ويثنى على ذاك الندى والتكرم

فأشعرنى ريا حبيب أعيره ... على رقبة لحظ المشوق المتيم

فوالله لولا أن تقول لى المنى ... وراءك لا تقدم على غير مقدم

لحدثت نفسى عند ذلك أننى ... أشم الذى ما بين عينيك والفم

وأهدت إليه أخرى تفاحة فقال:

بعثت إلى كخدها تفاحة ... وكطعم ريقتها رحيقاً سلسلاً

فصرفت وجهى عنهما ولقد أرى ... مترشفاً عذب الجنى ومقبلاً

كى لا يغار على الحبيب حبيه ... فيقول بات بغيرنا متعللا

شعره ورقته:

وإذا كان شعراء الأندلس معروفين برقة أشعارهم،وخفة أرواحهم وتأثرهم ببيئتهم الخضراء الوارفة الظلال، الطيبة الثمار، فإن ابن الحمارة بلغ من هذه الرقة ذروتها، وتسنم من تلك الخفة أعلى مراميها،وشعره الغزلى أكبر شاهد على أن حسه الفنى كان دقيقاً رقيقاً، واقرأ إن شئت قوله يصف حاله وغربته ويخاطب ليله الطويل:

ألا يـا ليـل هـل لـك مـن صـباح ... وهـل لأسـير نجمـك مـن سـراح
ألا يـا ليـل طلـت علـى حتـى ... كأنـك قـد خلقـت بـلا صـباح
فهـل باتـت فطيمـة فيـك تشـكو ... كمـا أشـكو اغترابـى وانتزاحـى
أردد زفـرة المضـنى كـأنى ... جـريح أن مـن ألم الجـراح
يقلبنـى الأسـى جنبـاً لجنـب ... كـأنى فـوق أطـراف الرمـاح

ثم يتجه بالخطاب إلى حبيبته التى أسماها فطيمة وهو هنا يكنيها بأم عمرو فيشكو لها لهفته إلى رؤيتها،ورغبته فى لقائها، وكيف تجشم المشاق ليزورها فجاء بلاداً ينكره أهلها وينكرهم، فأقام بينهم غريباً، عاشقاً، محزوناً، محروما، فهو يعاتب حبيبته لأنها لم تسمح بلقائه ولو أرادت لفعلت فهو يقول:

دعـانى الحـب نحـوك أم عمـرو ... فطـرت إليـك خفـاق الجنـاح
ولـو أسـطيع مـن طـرب وشـوق ... ركبـت إليـك أجنحـة الريـاح
أحبتنـا رويـدكم علينـا ... فقـد جمـح الهـوى كـل الجمـاح
هـو القـدر المتـاح جـرى علينـا ... ومـن يسـطيع للقـدر المتـاح
غريـب حـل داركـم فأضـحت ... لـه يهمـاء موحشـة النـواحى
تنـاكرت الوجـوه بهـا عليـه ... وكانـت ذات عـرف وانشـراح

ويشتد ابن الحمارة فى عتاب حبيبته أم عمرو، فيقول إن بيدها أن تلقاه فيبثها شوقه ولهفته وحبه ولواعج غرامه، وهى إن فعلت ذلك فما زادت على أن

صدقت ما كانت تزعمه من محبتها إياه، وعشقها له، وها هو ذا يشك فى كلامها فهو مريض بحبه وهى صحيحة معافاة لا تعانى سقم الحب، وهول العشق:

ولـــو شـــئتم لمـــا حســـن انفـــرادى بأشـــواقى ولا وجـــب اطراحـــى
وقلـــتم إنكـــم تجـــدون وجـــدى وهيهـــات المـــراض مـــن الصـــحاح
أعـــــاتبكم لأنكـــــم بخلـــــتم وأنـــتم قـــادرون علـــى الســـماح

ويبدو أن ابن الحمارة قد عبر البحر من الأندلس إلى المغرب وأقام فيه زمناً ففى شعره قصيدة يذكر فيها (المسيلة) وهى من بلاد المغرب الأوسط، وهو فى هذه القصيدة يخاطب محبوبة يكنيها بأم طلحة تقيم فى مدينة المسيلة على ما يبدو، فيقول:

لم يـــدر طيـــف خيالـــك المتـــأوب أنـــى علـــى جمـــر الأســـى أتقلـــب
وافـــى يعارضـــه رقيبـــى لم يـــدع نـــومى يجـــئ ولا ســـهادى ذهـــب

وانظر إلى روعة التصوير فى قوله يصف يقظة قوم أم طلحة وحراسها الذين يسهرون على حراستها من هذا العاشق المتربص، فيخيل إليه أن نيل النجوم أقرب إليه وأسهل عليه من أن يظفر بساعة ينام فيها هؤلاء الرقباء الحراس المزعجون:

يـــا أم طلحـــة والـــديار قريبـــة والـنجم مـن غفـلات قومـك أقـرب
هـــل تـــذكرين إذ الأعـــادى نـــزح والملتقـــى كثـــب ودارك مشـــغب
يـــا ســـرحة حرمـــت علـــى وإنهـــا لألـــذ مـــن مـــاء الحيـــاة وأعـــذب
مـــا بعـــد ظلـــك لى مقيـــل فـــاعلمى كـــلا ولا لى بعـــد مائـــك مشـــرب

يـا صـاحبى وإليـك شكوى صـاحب عجــزت محالتــه وضــاق المــذهب
امــرر علــى هــدف "المسـيلة" إنــه هــدف إلى مــع العشــى محبــب

ويبدو أنه يئس من لقاء حبيبته أم طلحة وغادر المسيلة عائداً إلى غرناطة ففى إحدى قصائده يظهر تأثره وتحسره على أيام أم طلحة فيقول:

ألا ليـت شـعرى هـل تعـود كعهـدنا ليــال طوينــاهن طــى المراحــل
إذا ذكرتها النفس كادت من الأسى تسـرب فـى أولى الـدموع الهوامـل
وإنــى وتركــى أم طلحــة بعــدما تسلسـل منـى حبهـا فـى المفاصـل
لظمــآن قفــر أبصــر المــاء حسـرة وقـد ذيـد عـن أطرافـه بالمناصـل
ولـولا رجـائى عطفـة الـدهر لم أبـل متـى نزلـت بـالنفس إحـدى النـوازل
عن النوم سل عيناً به طال عهدها وكــان قلــيلاً فــى ليــال قلائــل
أبيــت بمســتأنى الخيــال ودونــه طــروق ســهاد واعتيــاد بلابــل
إذا ظـن وكـراً مقلتـى طـائر الكـرى رأى هـدبها فارتـاع خـوف الحبائـل

والأبيات الثلاثة الأخيرة بلغت الغاية فى الإجادة وحسن تصوير الأرق، وما يجلبه الأرق والسهاد من ألم ومرض وحزن واكتئاب، لا ندرى أكان أكثره من الغربة أم من فراق الأحباب؟.

أبو العلاء المعري ضد تعليم المرأة

اسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، وكنيته أبو العلاء، ولقبه المعري نسبة إلى قرية " معرة النعمان " التي ولد بها من بلاد. الشام وتنوخ قبيلة عربية أصيلة نسبها بيعرب بن قحطان ويشهد المؤرخون لها بأنها "كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا"، وبنو الساطع الذين منهم بيوت المعرة، أعز بطون تنوخ، وبيت أبى العلاء من بنى سليمان ابن داود بن المطهر سليل الساطع، ويقول فيهم " ابن العديم " مؤرخ حلب " وأكثرها قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وأدبائها من بنى سليمان ".

وقد ولد أبو العلاء في بيت علم وقضاء وجاه، وكانت ولادته سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (٣٦٣هـ) الموافقة لسنة ٩٧٣ ميلادية.

وكان نحيف الجسم، وأصيب بالجدرى صغيرا فعمى في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. وطلب العلم وبرع فيه حتى اشتهر.

ودخل بغداد سنة ٣٩٩ هـ وظل فيها قرابة سنة ونصف سنة ثم عاد إلى معرة النعمان، ولزم منزله، وشرع في التصنيف، وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار، وسمى نفسه " رهين المحبسين " للزومه منزله وذهاب بصره، ويذهب بعض الكتاب إلى أنه رهين ثلاثة محابس لا محبسين اثنين، ويستدلون لذلك بقوله في اللزوميات:

أرانى في الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقـدى نـاظرى، ولـزوم بيتـى وكـون الـنفس في الجسد الخبيـث (١)

وقد ظل أبو العلاء معتكفا في منزله هذا من بعد عودته من بغداد في نحو سنة ٤٠٠ هـ حتى وفاته سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة، وثمان وخمسين وألف بعد ميلاد المسيح.

ويذكر المؤرخون لأبى العلاء أنه قضى هذه الحقبة في التدريس لطلابه الذين كانوا يقصدونه من كل صوب وصوب، وفي تأليف الكتب، ومؤلفاته كثيرة ومشهورة ومن أشهرها رسالة الغفران، وديوان سقط الزند، وديوان اللزوميات، وغيرها كثير. وكان يتصف إلى جانب علمه وثقافته بصفات خلقية رفيعة أطنب المؤرخون في تفصيلها، كما كان يرى رأى بعض الحكماء (= الفلاسفة) في عدم إيلام الحيوان ومن هنا جاء تحريمه أكل اللحم على نفسه ما يقرب من خمس وأربعين سنة.

أبو العلاء وتعليم المرأة:

يتلخص رأى أبي العلاء في المرأة في أنها شر، ولكنه شر لابد منه فهو على مستوى النظرية قدم لنا في اللزوميات الآراء المتعددة التي تؤكد هذا، وعلى مستوى التطبيق عاش بلا زوجة ولا ولد. غير أن آراءه المتعددة لا تخلو من تناقض:

فهو ينصح الإنسان بأن يزوج ابنته ولا يزوج ابنه:

واطلب لبنتك زوجاً كى يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

وذلك لأن الزواج عصمة للمرأة من الفتنة، وفي ذلك وقاية للمجتمع من الفساد الذي يترتب على خروج النساء، وعدم إحصانهن. أما الرجال فهم قادرون

على الصبر على عدم الزواج، والرهبان أصدق مثال على ذلك لولا أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

ويعجبني عيش الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

وهو يدعو إلى التفرد واعتزال النسل لأن الإنجاب يعرض الذرية لآلام الحياة وفي عدم الإنجاب وقاية من ذلك:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وقوله:

الحكم للّه، فالبث مفرداً أبداً ولا تكن بصنوف الناس مختلطاً

ولست أدري سوى أنى أرى رجلاً يرب نسلاً لرب الدهر قد غلطا

وهو يرى أن طبيعة المرأة فاسدة، ويؤكد أن النساء ناقصات عقل، ويستدل على ذلك بقاعدة نحوية وهى جمع غير العاقل بالألف والتاء وهما علامة جمع التأنيث فنحن نقول في جمع مجلة وكراسة وسماء: مجلات وكراسات وسماوات، كما نقول في جمع بنت: بنات، فهو يستنتج من ذلك أن انعدام العقل في الجمادات هو الذي جعلنا نختار لها من بين صيغ الجموع التي تعرفها لغة العرب، صيغة جمع المؤنث، وهو استنتاج عجيب ولا دليل عليه. يظهر في قوله:

إنا، معاشر هذا الحلق، في سفه حتى كأنا على الأخلاق نختلف

إن الرجال إذا لم يحمها رشد مثل النساء عراها الخلف والخلف (٢)

ألا تـرى جمـع مـالا عقـل يسـنده جمـــع المؤنـــث فيـــه التـــاء والألـــف

وقد صرح أكثر من مرة بأنه يوافق على وأد البنات، أو لعله يقصد أن الموت خير للفتاة من الحياة. فمن ذلك قوله:

إن الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال عرائس

وهـو ينصـح الزوجـات اللاتـي لهـن بنـات، أن يتشـددن في تربيـة بنـاتهن ولا يتركـنهن يخـرجن لشـهود حفـلات الـزواج وهـن متزينـات بـالحجول (الخلاخيـل) والأقراط:

نصحتك يـا أم البنـات فحاذرى وســـاوس ولاج الأسـاود، فنـاس

ولا تلبسي الحجلين بنتك والبرى لتشهد عرساً، واشغلنها بعـرناس (٣)

فعلى الأم أن تشغل ابنتها بمغزل تتلهى به، وألا تستمع لمن يوسوس لها بخروجها.

وأبو العلاء إذ يرفض المرأة، ويرى الموت خيراً لها من الحياة، فإنما يرفضها في جميع حالاتها بدرجات مختلفة، فهي تعبث بألباب الرجال ومن صفاتها ألا تنصف أحداً حتى من عشاقها:

نعـــوذ باللّه مـــن غـوان يكـن بـاللـــب معصفات

ومن صفات النساء قـدما أن لسن في الود منصفـات

ولذلك نجده ينصح الرجل ألا يأمن للمرأة وألا يسايرها في غوايتها لأن تبعات ذلك كثيرة.

لا تتبعن الغانيات مماشيا إن الغواني جمة تبعاتها

وهو يرى أن أمر المرأة كله شر، فليست فتنة النساء في دخول الحمامات (وهي أماكن عامة كانت تنتشر في ذلك الوقت للنظافة) فحسب، بل إن مجرد تفريط الرجل وسماحه للمرأة بالخروج متعطرة متزينة هو شر كبير حتى لو كان خروجها إلى المسجد، فمن ذا الذي يأمن الإمام الذي ستصلي خلفه ؟ يقول أبو العلاء مرتجزاً:

شر على المرأة من حمامها إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في أكمامها يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إلمامها تأتم والخيبة في ائتمامها
بأحدل ما عف عن كمامها أعاذها الخالق من إمامها

وفي اللزوميات قصيدة مطولة خاصة بالنساء عرض فيها أبو العلاء آراءه بالتفصيل والوضوح مطلعها:

ترنم في نهارك مستعيناً بذكر الله في المترنمات

فهو يصف النساء في هذه القصيدة بأنهن يتظلمن وهن ظالمات، فلا ينبغي على الرجل أن يرد عليهن السلام إذا أشرن إليه بالسلام لأنهن طرق إلى الغي والفتنة، لا يكتفين بالوسامة الطبيعية، بل يلتمسن الوسامة بالخضاب (=الحناء)

ولا ترجـــع بإيمـــاء ســـلاماً ... علـــى غيـــد أشـــرن مســـلمات
أولات الظلـــم جـــئن بشـــر ظلـــم ... وقـــد واجهننـــا متظلمـــات
فـــوارس فتنـــة أعـــلام غـــى ... لقينـــك بالأســـاور معلمـــات
وســام مــا اقتــنعن بحســن أصــل ... فجئنـــك بالخضـــاب موسمـــات

وماذا سيستفيد الإنسان من صحبة النساء ؟ إذا ولدن له أولاداً فقد يعاني من عقوقهم وأذاهم وما يجرونه إليه من مصائب، وإذا ولدن له إناثاً قسيمات الوجوه جميلات، فما أشد بؤسه بهذه الوجوه الحسان التي تريد حلياً وتريد زواجاً وهن لا يدفعن عن الرجل في الحرب ولا يرددن عنه غارة، ومع ذلك فإنه لايسلم من لومهن وتأنيبهن:

صـحبنك فاسـتفدت بهـن ولـدا ... أصـابك مـن أذاتـك بالسـمات
ومـــن رزق البـــنين فغـــير نـــاء ... بـــذلك عـــن نوائـــب مســـقمات
فمـن ثكـل يهـاب ومـن عقـوق ... وأرزاء يجـــــئن مصـــــممات
وان تعـط الإنـاث فـأى بـؤس ... تـــبين في وجـــوه مقســـمات
يـــردن بعولـــة ويـــردن حليـــاً ... ويلقـــين الخطـــوب ملومـــات
ولســن بــدافعات يــوم ضــرب ... ولا في غـــــارة متغشـــــمات

فأفضل شيء للنساء دفنهن، لأنهن إذا كبرن وتزوجن ثم فقدن أزواجهن فسيصرن عبئاً على آبائهن مرة أخرى، كما أنهن قد يلدن في المستقبل من يعادى جده أو أخواله، وقد يجلبن العار إذا مسهن ظلم أو هضمت حقوقهن:

ودفن والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المرمات

وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات

يلدن أعادياً ويكن عاراً إذا أمسين في المتهضمات

وهو ينهى عن تعليم المرأة صراحة، ويدعو إلى تعليمهن حرفة الغزل لأن في ذلك أماناً لهن:

ولا تحمد حسانك إن توافت بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع[٤] مقلمات

لأن النساء إذا تعلمن فسيستعملن ما تعلمنه في الشر:

سهام إن عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسممات

ويتركن الرشيد بغير لب أتين لهديه متعلمات

وان جئن المنجم سائلات فلسن عن الضلال بمنجمات[٥]

ليأخذن التلاوة من عجوز من اللائى فغرن مهتمات

يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأثمات

فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وإذا كان لابد من تعليمهن فيجب أن يختار الرجل لتعليم بناته معلماً عجوزاً أكل عليه الدهر وشرب، يعلمهن آيات القرآن، بحيث يكون قد بلغ من الكبر مبلغاً يجعله مرتعش اليدين، أشيب الشعر:

ولا يُدْنينَ من رجل عجوز يلقنهن آيا محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتثغمات

ويتحدث أبو العلاء عن ظواهر اجتماعية بعينها، كالشعوذة، فينصح كل أب أن يحتاط في معاملة بناته، وأن يسعى في تربيتهن سعى المشفق عليهن، ومن أساليب التربية التي يدعو إليها الآباء، ألا يتركوا بناتهن يخرجن لزيارة اترابهن ممن تزوجن وأصبحن عرائس فيخرجن متخذات زينتهن لباساً كريش الطاووس وعطوراً يجعلنها في وجوهن.

وإن طاوعن أمرك فانه غيداً يزرن عرائساً متممات

أخذن كريش طاووس لباساً ومسكا بالضحى متلغمات(٦)

ومن أساليب تربية الرجل لبناته ألا يتركهن يذهبن إلى عجائز النساء المشعوذات اللائي يزعمن أنهن قادرات بسحرهن على جلب الأزواج وتليين قلوب العشاق وعطفها حتى يعودوا إلى معشوقاتهم:

وأبعدهن عن ربات مكر سواحر يفتدين معزمات

يقلن: نهيج الغياب حتى يجيئوا بالركاب مزممات

ونعطف هاجر الخلان كيما يزول عن السجايا المسئمات

فلا يدخلن دارك باختيار فقد ألفيتهن مذممات

كما أن أبا العلاء يذم زواج المصلحة، فلا ينبغي أن تتزوج فتاة مراهقة من شيخ عجوز، لاسيما إذا كان فقيراً، لأن الفقر مع تقدم السن بلاء مبين، وإذا أراد ذلك العجوز أن يتزوج فعليه أن يبحث عن امرأة عانس تقلبت مر الدهر وانتظرت الزواج عاماً بعد عام فهى شمطاء واهنة تتسلى بغزل الصوف مع مرور السنين:

ولا يتأهلـــنْ رجــل مقــل بمعصـــرة من المتنعمات(٧)

فان الفقر عيب إن أضيفت إليه الســن جاء بمعظمات

ولكن عرس ذلك بنـــت دهر تجنبــت الوجوه محممات

من اللائي إذا لم يجـــد عام تفوقـن الحوادث معدمات

من الشمط اغتزلن بكل عودٍ وأفنيـــن السنين مجرمات

ثم إن الرجل إذا تزوج فلا ينبغي له أن يعدد زوجاته بل لابد أن يكتفي بواحدة.

وواحدة كفتـــك فلا تجاوز إلـى أخرى تجيء بمؤلمات

وهو ينهى عن ظلم الزوجة لأن النساء كالزجاج، ولعله اقتبس هذا المعنى من القول المأثور (رفقاً بالقوارير) أو القول الآخر (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج، إذا جئت تقومه كسرته):

وإن أرغمت صاحبة بضر فأَجْدِرْ أن تروع بمعرمات(٨)

زجاج إن رفقت به، وإلا رأيت ضروبه متقصمات

ونجده في غير هذه القصيدة يلح في تعليم المرأة، لأن المرأة لا ينبغي أن تطلب من العلم إلا ما يحفظ عليها دينها، ويكفى في ذلك أن تحفظ سورة الإخلاص وسورة الفاتحة، وتستغني بها في صلاتها عن السور الطوال:

علمـوهن الغـزل والنسـج والـردن وخلـوا كتابـة وقـراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلاص تجزى عن يونس وبراءة.

وقد بلغ من تشدد أبي العلاء على المرأة بعد أن نهاها عن الصلاة في جماعة أن نهى عن حج المرأة، وهو بهذا يخالف قواعد الدين ولا نستطيع أن نلتمس له في ذلك عذراً.

وخلاصة ما سبق:

أن أبا العلاء ساء ظنه بالمرأة إلى درجة من النادر أن بلغها شاعر غيره.

- أنه يرى تعليم المرأة في ظروف مشددة من رجل عجوز.
- ولا ينبغى أن تزيد في تعليمها عما تتطلبه أمور العبادة.
- وألا تخرج المرأة متزينة متبرجة متعطرة.
- وأن يبتعد الرجال بأنفسهم وبأسرهم عن الفتنة.
- وأن الزواج شر، فإن كان ولابد فواحدة تكفى.
- وعلى الرجال أن يسارعوا بتزويج بناتهم، وألا يسارعوا في تزويج أولادهم.

- أن أبا العلاء قد تناقض مع نفسه في كثير من آرائه فيما يخص المرأة.

أن بعض آراء أبى العلاء في المرأة تخالف أصول الدين حيث تطرف في مراعاة الحذر حتى دعا إلى وأد البنات واستحسن ذلك، كما حذر من شهود المرأة الجماعات.

opeikandl.com

من عجائب التصحيف

حكاية عيسى !!!

التصحيف هو تغيير بعض أحرف الكلمة فيتغير معناها ، ويكون التصحيف بتغيير ضبط الحروف (حركاتها) أو تغيير ترتيبها بتقديم أو تأخير ،وقد روى صاحب كتاب " تصحيح التصحيف وتحرير التحريف " في كتابه كثيرا من نوادر التصحيف في تراثنا ، فمن التصحيف اللطيف ما روي عن الشاعر المتفنن صفيّ الدين الحلي، الذي كان ولوعا باستعمال التجنيس والتورية وسائر فنون البديع في شعره ، والأبيات التالية تتحد فيها كلمة الروي (عيسى) ولكنها تأتي بمعان مختلفة إذا ما كتبت خالية من التنقيط ، وهذه المعاني المختلفة أساسها تلك الاحتمالات المتعددة التي يمكن أن تنطق بها تلك الكلمة حال خلوها من النقط :

سألتُ الحِبّ: ما اسمُك، وهو ظبي من العرب الكرام، فقال: عيسى،

(الاسم العلَم أي : أن اسمه " عيسى ")

فقلتُ له: انتسِبْ من أيّ قومٍ تكون من الأنام؟ فقال: عيسى،

(عَبسيّ من بني عبْس)

فقلتُ: وما صَنيعُك في البوادي لتحصيل الحِطام؟ فقال: عيسى،

(يعني عشّاباً)

فقلتُ: ومَنْ أنيسك في البوادي إذا جنّ الظلامُ؟ فقال: عيسى،

(عَنـْسى : يعني ناقتَه)

obeikandi.com

فقلتُ: وعمّ تسألُ كلَّ غادٍ يمر على الدوامِ؟ فقال: عيسى،

(عن شيء)

فقلتُ: وأي عيش في البوادي يلَذّ لذي الغرام؟ فقال: عيسى،

(عيشي)

فقلت: ولمْ عصيْتَ نُصيحَ حبٍّ دعاك الى المقامِ؟ فقال: عيسى،

(غشني)

فقلت: لقد سلبتَ القلبَ منّي بلحظِك والقوام، فقال: عيسى،

(عبثتَ بي)

فقلتُ: عساكَ تسمحُ لي بوصلٍ أيا بَدرَ التّمام، فقال: عيسى،

(عنّيتَني : من العناء أي أرهقتني)

فقلتُ: وما الذي يدعوكَ حتى تَجافى بالكلام، فقال: عيسى،

(غَبَنْتَني أي ظلمتني من الغبن يقصد أنه لم يتعمد مجافاة الكلام)

فقلتُ له: صدَقْتَ وكلّ شيء تقولُ على النِّظام، فقال: عيسى،

(عُنيتَ بي)

فقلت: بمَن أعيش وأنت سُؤْلي وتبخل بالمرام، فقال: عيسى،

(عِشْ لي)

وقال الشاعر عز الدين أبو الحسن الموصلي الحنبلي أبياتا يحاكي بها أبيات صفي الدين الحلي السابقة ، وحاول أن يزيد عليها فقال :

أتى عيسى وناداني: تُرى مَن تُحب من الأنام؟ فقلت: عيسى،

(عَنَـيتـَني)

فقال: نعم رأيتُ إليك قلبي يحنّ من الهيام فقلت: عيسى،

(عَيْنُ بَثيّ)

فقال: وما حَلالي قط شيءٌ سِوى هذا المقام فقلت: عيسى،

(غيّبتـَني)

فقال: ونيّتي واللّهِ وصلٌ به يُمْحى الملامُ فقلت: عيسى،

(عينُ نيّتي)

فقال: عليك لي عتبٌ إذا ما تطارَحْنا الغرامَ فقلت: عيسى،

(عَتبْتَني)

فقال: بشرطِ أنْ أشدو بلَحْنٍ على شُرب المدامِ فقلت: عيسى،

(غنّ شيء)

فقال: أما شدوتُ بطيبِ نغم يحنّ له الحَمام؟ فقلت: عيسى،

(غنّيتَني)

فقال: وقد أتتْ ليلى: سلامٌ، وأسرع في القيام فقلت: عيسى،

(عنّ بَيني)

فقال: وما حَداك على فراقي بلا رَدِّ السلام؟ فقلت: عيسى،

(عيّبتَني)

فقال: انظر وقد حنقتْ عليه وتعبس في الكلام فقلت: عيسى،

(عبّسي)

oberkandi.com

فقال: حملتَ عِبءَ العشقِ منها وصبرك في انهزامِ ، قلت: عيسى،

(عبءٌ سيئ)

فقال: وما ترى فعل اللواتي رَعَيْن لك الزمام؟ فقلت: عيسى،

(غيّبْتَني)

قال صاحب الكتاب : فقال لي بعض الناس: ألا إنك جعلت عوض فقلت: فقال، وعوض فقال: فقلت. قال: فغيرتها الى الصورة التي قالها، وقلت:

أتى عيسى فقلت له: الى من تميل من الأنام؟ فقال: عيسى،

عَنَيْتَني

فقلت: نعم رأيت إليك قلبي يحن من الهيامِ، فقال عيسى،

عيْن بَنّي

فقلت: وما حَلالي قط شيء سوى هذا المقامِ فقال: عيسى،

غيّبْتَني

فقلت: ونيّتي يا بدر وصلٌ به يشفى الأُوامُ فقال: عيسى،

عينُ نيتي

فقلت: عليك لي عتب إذا ما تطارحنا الغرام فقال: عيسى،

عتَبْتَني

فقلت: بشرط أن أشدو بلحن على شرب المدام فقال: عيسى،

غنّ شيء

فقلت: أما شدوتَ بطيب نغم يحن له الحمام فقال: عيسى،

غنيتني

فقلت: اجلس فقد جاءتك ليلى تحيي بالسلام فقال: عيسى،

عنَّ بيني

فقلت: وما حداك على فراق وإسراع القيام فقال: عيسى،

عيّبْتَني

فقلت: أقم، فقامتْ وهي غضبى تعبس في الكلام، فقال: عيسى،

عبسيّ

فقلت له: حملت العبء منها وصبري في انهزام، فقال: عيسى،

عبء سيئ

فقلت: فما فعل اللواتي رعَيْنَ لك الزمام، فقال: عيسى،

غيّبنني

قال صاحب التصحيف : وقد بقيتْ على ذلك زيادة ليس فيها زبدة، ولا يقدح البديع فيها زنده، فأحببتُ نظمها، وأردتُ رقمها، فقلت، وإنْ كان في ذلك قلَق، ولم ينشق دجاه عن فلَق، فإن المُتقدّمين الفاضِلين أخذا ما رقّ وراقَ، وفلَذا ما راع ونزل وما هو في درَج الفصاحة بِراقٍ ولا برّاق، فليعذرْ صاحبُ الذّوق مَنْ شبّ عمره في هذا المقام عن الطوق، وذلك:

غدا عيسى يفرُّ من الغواني فقلتُ له: عَلامَ؟ فقال: عيسى،

عبثنَ بي

فقلتُ: اغفرْ وعُدْ، فالعود أولى، فما في ذاك ذام فقال: عيسى،

غبنٌ ثُنّـيَ

فقلت: احملْ أذى مَن بتّ تهوى ولا تخشَ الملام فقال: عيسى،

عيبٌ نُبي

فقلتُ: وما يَسوءُك بتُّ سرّ تنالُ منه المرام فقال: عيسى،

عِبتُ بثّـي

فقلت: فراستي حكمت بهذا عليك فما ألام فقال: عيسى،

عيبٌ نُبي

فقلت: رأيتك مع فتاةٍ حكَتْ بدْرَ التمام فقال: عيسى،

غيّبَتْـني

فقلت: فما لقدك وهو غُصنٌ يميلُ من المدام فقال: عيسى،

عن نثنّـي

فقلت: فما ترى من بعد هذا فقل جاء المنام فقال: عيسى،

غشّني

فقلت: وما ركابك إن قطعنا الفلا تحت الظلام فقال: عيسى،

عِيسى

فقلت: أريد أن ألقاءك خِلْواً تفرّ من الآثام فقال: عيسى،

غَثَـيتني

قال مؤلف كتاب التصحيف المذكور :وقلت أنا في تصحيف يحيى:

obeikandl.com

ومليح قلتُ: ما الاسمُ حبيبي؟ قال: يحيى،

(العلَم المشهور)

قلتُ: خاطبني بتصحيفٍ تعِشْ لي قال: يحيى،

(يحيا من الحياة)

قلت: حيّاك إلهي، قال لي: بل أنت يحيى،

(تُحيَّا من التحية)

قلت: في قدّيْكَ ورْدٌ وهو غضّ قال: يحيى،

(يُجْنى من الجَنَى)

فتَوقَّ الجفْنَ مني فهو سيفٌ، قلت: يحيى،

(يجْني بالجيم من الجناية)

قلتُ: أصبحتَ مليكَ الحُسْن فرداً، قال: يحيى،

(بختي من البخت)

والَى عندي حَراجُ الحُسنِ في الآفاق يحيى،

يجبَى من الجباية

وإذا العُصن تثنّى فلقَدّي بات يحيى،

يُحنَي من الانحناء

وإذا قام بقدٍ فنسيم الريح يحيى،

ُجثى من جثا على ركبتيه

أنا لو شِئْتُ لحُسني كان فوق البدر يحيى،

obeikandl.com

تختي من التخت الذي يجلس فوقه

فهو في الصورة من فوقٍ وفي معناه يحيى،

تَحتي نقيض فوْقي

فقلت: هل أُحْبَى وِصالاً منك حلواً قال يحيى،

تُحْبى من الحِباء

قلت: لو بُحتُ بسري خفَّ ما بي قال يحيى،

بُحْ بي من البَوْح

وإذا ما ناحت الوُرْقُ على الأغصان يحيى،

نُحْ بي من النَّوْح

قلت: ما يقطع خصمي عندَ عدْلي؟ قال: يحيى،

بحْثي من البحْث

قلت: لكن اشتهى لو قطّعوه، قال: يحيى،

بجَبّي من الجَبّ وهو القطع

قلت: ما لي من شفيع يعتني بي، قال: يحيى،

بحُبّي من الحُبّ

قلت: ما تنجو سريعاً من وصالي، قال يحيى،

نجِّني من النّجاج

قلت: نحّيت غرامي، قال: من قلبك يحيى،

نحّني من التنحية

obeikandl.com

قلت: نحتُ الصخر دأبي وقد أعيا فيكِ يحيى،

نحْتي من النحت

وكذاك الدهرُ ما زال على الأحرار يحيى،

يُخني أي يُهلِك

قلت: خذني لك عبداً، قال: من يألف يحيى،

بجِنّي من الجِنّ

قلت: جفن قد حَثا الدمع بخدّي، قال: يحيى،

يُحثى من الحُثوة

قلت: قد سال دماً من جفن عيني، قال: يحيى،

ثجَّ بي من النّجّ

قلت: في جفني قرحٌ من بكائي، قال: يحيى،

نجَّ بي من نَجَّت القرحة

قلت: دُخري دمع عيني، قال: للشدة يحيى،

يُخبا من الخبيئة

قلت: ما لي قط ذنبٌ، كيف تجفو؟ قال: يحيى،

تجنّى من التّجنّي

ثم لانَ القلبُ منه إذ رأى في اللفظ يحيى،

نُخَبي جمع نُخبة

قلت: قُمْ وانشطْ ولا تكسَلْ وسافر، قال يحيى،

obeikandl.com

نَحّني من النخوة

قلت: ما تركب إن سرنا جميعاً؟ قال: يحيى،

نُجبي جمع نجيب

قلت: فاخترْ لي مركوباً غليظاً، قال: يحيى،

بُختي بالخاء المعجمة

قلت: ما الزاد الذي تعتدّه لي؟ قال: يحيى،

يخني يعني مسْلوقاً

قلت: وما الماء الذي نلقاه وِرْداً؟ قال: يحيى،

بجُبّي يعني الجُبَّ

قلت: إنْ كَلّ بعيري بمَ يُزْجى؟ قال: يحيى،

بخَتّي من الحتّ

فهُو لو لم يقضِ قَصْدي كُنتُ أقضي فيهِ يحيى،

نَحْبي من قضى نحبه

obeikandl.com

الألغاز الشعرية النحوية

الألغاز النحوية باب من أبواب تراثنا القديم طريف ممتع، عُني به أئمة اللغة الكبار من النحاة والبلاغيين، حتى كثر التصنيف فيه وأفردت له مؤلفات خاصة جمع فيها مصنفوها أفانين شتى من هذا اللون الشائق من ألوان البحث اللغوي وتباروا في النسج على منواله، وحلما فيه من إشكالات لفظية أو معنوية. والمتصفح لهذا التراث يجد بغيته منه تحت عناوين شتى منها "الألغاز" و"الأحاجي" و"المعمَّيات" و"الملاحن" ومع ما بين هذه العناوين من فروق دقيقة تناولها الدارسون يبقى أنها تجتمع جميعاً في أنها تمثل تحدياً لعقلية السامع، واستفزاز قدراته العقلية، وامتحان مهاراته اللغوية.

وقد حاول بعض السلف أن يحددوا القيمة البلاغية للألغاز فقد ذكر ابن الأثير في المثل السائر أن اللغز "إنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة، ويحد الخاطر لأنه يشتمل على معان دقيقة يُحتاج في استخراجها إلى توقد الذهن، والسلوك في معارج خفية من الفكر..." ، أي أن الوظيفة الحقيقة للألغاز تستهدف تنمية القدرات العقلية والملكة اللغوية، فضلاً عن وظيفتها الترفيهية الممثلة في الإمتاع.

ولعل هذا المنظور نشأ مع نشأة الألغاز التي قُصد منها في بداية ظهورها تحدى عقلية المستمع وحفز تفكيره لمحاولة حل اللغز وبيان ما فيه من غرابة، وكانوا يتسامرون بهذه الألغاز كقول بعضهم عن النار :

وآكلـــة بغـــير فـــم وبطـــن لهـــا الأشـــجار والحيـــوانُ قـــوتُ
إذا أطعمتهـا انتعشتْ وعاشتْ وإن أســـقيتها مـــاءً تمـــوتُ

ووجه الغرابة في هذا اللغز، يظهر من المفارقة بين الأكل والشرب، فهذه الآكلة المسؤول عنها، إذا شربت تموت. وهذا أمر مخالف لطبيعة كل المخلوقات الآكلة..

وهنـاك نـوع آخـر مـن الألغـاز يعتمـد على البنـاء اللغـوي للكلمـة التي هلى حـل اللغز، كما في قول الشاعر:

حروفـــه محـــدودة خمســـةً إذا مضـى حـرفٌ تبقّـى ثمـانْ!

أي أن الشئ المجهول المسؤول عنه يتألف من خمسة حروف، إذا ضاع منها حرف بقى ثمانية حروف، فوجه الغرابة في اللغز أن المتبقي يجب أن يكون أربعة أحرف. ولكن المفارقة تأتي من استعمال كلمة (ثمان) فإنك إذا سبقتها بحرف واحد وهو العين صارت (عثمان) وهو حل اللغز المطلوب.

وهناك نوع آخر من الألغاز يصعب الاهتداء إلى حله بطريق الحدس والحزر وحسن التقدير، فهذا شاعر يتحدث عن ضرسه الذي يأكل به ويعتمد عليه في طعامه، فهذا الضرس يخدمه طوال عمره من غير أن يراه، فإذا خلعه وألقى به فلن يلتقيا بعد ذلك. يقول هذا الشاعر ملغزاً في ضرسه.

وصـــاحب لا أمـــل الـــدهر صـــحبته يشقى لنفعي ويسعى سعى مجتهد
مـا إن رأيـت لـه شخصـا، ومـذ وقعـت عـيني عليـه، افترقنـا فرقـة الأبـد

ومثل هذا النوع من الألغاز، لا يدرك حله عن طريق البناء اللغوي، وإنما يُدرك حله عن طريق البحث العقلي عن وجه المفارقة والغرابة.

اللغز والتعقيد اللغوي:

وقد بلغت عناية القدماء بالألغاز أن عدوها صناعة لغوية رأوا فيها مجالا لقدح زناد العقول، وتدريب الأفهام على إدراك تراكيب اللغة المعقدة، وكشف العلاقات بين تلك التراكيب. والمثال التالي من هذا النوع، فالشاعر في هذا البيت يصف حاله وهو في معركة ومعه صديقاه خالد وعمرو، فلما تكاثر عليه الأعداء وبلغت السيوف أنيابه،أمر صديقه عمراً أن يلحق بخالد، فهو يقول:

أقول: لِ خالداً يا عمرو، لّما عَلَتْ نابي السيوفُ المرهفاتُ

واللام المكسورة (لِ) ليست حرف جر، بل هي فعل أمر من الفعل (وَلِي – يلي) مبني علي حذف حرف العلة، مثله مثل كل أفعال الأمر التي تجئ على حرف واحد مثل "قِ" من الوقاية، ومثل "فِ" من الوفاء، وما شابههما. و"خالداً" مفعول به أي: الحق يا عمرو خالداً.

والملغزون القدامى يعتمدون على المغالطة الصوتية فينطقون البيت نطقا سليماً، ولكنهم من باب الإلغاز والتعمية يكتبونه كما ينطقونه فتظهر كتابته هكذا:

أقول لخالداً ياعمرو، لما علتنا بالسيوفُ المرهفاتُ

والباء المسكورة الملحقة بكلمة "السيوف" ليست حرف جر، بل هي جزء من كلمة "نابي" [أي: مفرد أنيابي] ومعنى البيت "لما اشتدت الحرب حتى علت

سيوف الأعداء نابي قلت لعمرو: تول خالدا والحق به" وقد ظهرت الغرابة في وجود كلمتين إحداهما منصوبة بعد حرف الجر، والأخرى مرفوعة بعد حرف الجر.

في حين أن اللام والباء هنا ليسا حرفي جر، وإنما هو التلاعب والتعقيد اللغوي المقصود.

ومن هذا النوع المعتمد على التعقيد اللغوي ما يكون فيه الخداع قائماً على الأداء الصوتي فقط دون الكتابين كما في قول الشاعر:

لقد طاف عبدَ اللّه بالبيتَ وحج من الناسُ الكرامُ الأفاضلُ

فالمفارقة هنا تظهر من مجئ كلمة (عبد اللّه) منصوبة بالفتحة مع أنها فاعل حكمه الرفع بالضمة ، ومن مجئ كلمة (البيت) منصوبة بالفتحة مع وقوعها بعد حرف الجر (الباء)، وكذلك مجئ كلمة (الناس) مرفوعة مع وقوعها بعد حرف الجر (من)، وحل هذا اللغز أن في المواطن الثلاثة مداً صوتياً قصيراً وأصل البيت هو:

لقد طاف عبدا اللّه بي البيتَ سبعةً وحجَّ منى الناسُ الكرامُ الأفضلُ

أي أن للشاعر صديقين من عباد اللّه طافا به البيت سبعة أشواط وقت أن كان الناس الكرام الأفاضل يحجون إلى "منى".

فكلمة (عبدا) مثنى أضيف إلى لفظ الجلالة فالتقي ساكنان فصار المدّ قصيراً فراراً من التقاء الساكنين لو امتد الصوت بالمد الناشئ عن ألف الاثنين. وكذلك كلمة (بي) التقى المد الناشئ عن ياء المتكلم [المبنية في محل جر بالباء] بألف

الوصل أول كلمة (البيت) فامتنع المد الطويل، وهو الحال أيضا في الألف المقصورة التي تنتهي بها كلمة (منى) حين التقت بألف الوصل في أول كلمة (الناس) فصار المد قصيراً. وهذا البيت في حال إلقائه يثير انتباه من يستمع إليه وقد يستغرق وقتا طويلا في تفسير ما يسمع.

مم يتكون اللغز؟ :

يتكون اللغز عادة من عدد من العناصر تتآلف فيما بينها بهدف تحقيق المفارقة التي تحير فهم السامع أو القارئ، وتستثير اهتمامه، ومن خلال استعراض الكتب القديمة التي جمعت ألواناً من الألغاز، وحللها، يمكن استنباط المكونات الأساسية للغز وهي:

١- المكوّن البلاغي:

وذلك حين يعتمد اللغز على فن من فنون البلاغة مثل الكناية أو الاستعارة أو الاشتراك اللفظي، أو الجناس، أو التورية، ومن هذا اللون ما رواه العسكري من أن الرشيد سأل أهل مجلسه عن قول الشاعر:

قتلوا ابن عفان الخليفة مُحْرِمَاً ودعا فلم أر مثله مخذولاً

فقال: أي إحرام هذا؟ فقال الكسائي: أحرم بالحج، فقال الأصمعي: والله ما أحرم ولا قصد الشاعر هذا، ولو قلت أحرم: أي دخل في الشهر الحرام كما يقال أشهر:

أي دخل في الشهر لكان أشبه [أي أقرب إلى الصواب]. فقال الكسائي: فما

أراد الشاعر بالإحرام؟ قال الأصمعي: كل من لم يفعل شيئاً يستحق به العقوبة فهو مُحرم. كما قال عدي بن زيد:

قتلـوا كسـرى بليـلٍ محرمـاً فتـولى لم يمتَّـع بكَفَـنْ

فهذا اللغز إذاً يعتمد على مكون بلاغي أساسه الاشتراك اللفظي لأن لفظ (محرم) له ثلاث معانٍ كما رأينا: من لم يذنب ذنباً يعاقب عليه، ومن دخل في أحد الأشهر الحرم، ومن أحرم بالحج.

٢- المكوِّن اللغوي:

وإذا كان المكون البلاغي يعتمد على فنون البلاغة، وهي متعددة، من جناس وتورية واستعارة، ولها جمالها الأخاذ، وبريقها الساحر، وبناؤها المستفز للعقول، فإن هناك لوناً آخر من الألغاز يعتمد على مكون لغوي قوامه ما في اللغة ذاتها من ثراء يتمثل في ظواهر متعددة كالاستقاق والنحت والإضمار والحذف وغير ذلك . فمن ذلك ما رواه الحريري في مقاماته ونص اللغز:

- أين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تجامل؟ وجوابه أنها السين التي تدخل على الفعل المضارع المسبوق بأن الناصبة فتعزل (أن) عن عملها لا تنصب الفعل بل تتحول إلى (أنّ) مخففة كما في قوله تعالى: { عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ } [المزمل: ٢٠] أي أنه علم أنه سيكون منكم مرضى، فصارت (أن) هناك مخففة من الثقيلة وعزلتها السين عن عملها الأصلي وهو النصب.

٣- المكوِّن الكتابي:

وهذا المكوِّن يعتمد على ما يسمى (التصحيف) أي تغيير شكل الكلمة كتابياً، بطرق مختلفة كوصل مالا يوصل، أو فصل ما لا يفصل، أو إهمال وضع النقاط في موضعها، أو وضعها في غير مواضعها. وقد سبق أن مثلنا لهذا اللون من الألغاز بقول الشاعر:

أقــول لخالــداً يــا عمــرو لمــا علتنــا بالســيوف المرهفــات

ومن هذا اللون الذي يعتمد على الخداع الكتابي أو التصحيف قول الشاعر:

وغــلام رأيتــه صــار كلبــاً ثــم بعــد ذاك صــار غــزالا

وجوابه أن المقصود هنا (صاد) من الصيد، وليس (صار) بمعنى تحول.

ومنه لغز في (الفيل) وكلمة (فيل) تتكون من ثلاثة أحرف وإن كان للفيل أربعة أرجل. هذه الكلمة (فيل) إذا صحفت صارت (ليف) فتكون من ثلاثة أحرف وثلثاها كلمة (لي) وقد صاغ الشاعر هذا اللغز فقال:

ما اسم شئ تركيبه من ثلاثٍ وهــو في أربــع تعــالى الإلــه

"قبـل" تصـحيفه ولكـن إذا مـا عكســوه يصــير "لــي" ثلثــاه

٤- المكوِّن الصوتي:

وعلى العكس من المكوِّن الكتابي، فهناك المكوِّن الصوتي الذي يعتمد الإلغاز فيه على الخداع الصوتي عن طريق استخدام المد الطويل والقصير والإخفاء والإدغام

التنوين وغير ذلك من مظاهر الأداء الصوتي.. وقد مثلنا له في البداية بقول الشاعر الذي يعتمد على الخداع الصوتي عن طريق المد القصير:

لقد طاف عبدَاللّٰه بالبيتَ سبعةً وحج من الناسُ الكرام الأفاضل

ومن هذا اللون الصوتي الذي يعتمد على الإدغام مثل قول الشاعر:

عافت الماء في الشتاء فقلنا برِّديه تصادفيه سخيناً !!

فكيف تعاف الماء في الشتاء لبرودته ثم يطلب منها أن تبرده لكي تجد ساخناً؟.. والخداع الصوتي هنا جاء من إدغام كلمتين هما (بل) و(رديه) – بكسر الراء والدال –: أي (اشربي منه) فصارتا: بل رديه، وعند النطق بهما مدغمتين تصبحان كالكلمة الواحدة: برِّديه. والمعني: لا تخافي الماء ولا تعافيه. بل اقتربي واشربي فستجدينه ساخناً.

تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

وفي رأينا أن من الممكن استخدام الألغاز في تعليم القواعد النحوية لتحقيق الأهداف التالية:

١- تنمية قدرة التلميذ على الربط بين عدد من القواعد النحوية.

٢- تنمية ملكة التذكر عن التلميذ.

٣- تحيق الترابط بين القاعدة النحوية وتطبيقها.

٤- تنسيط مهارة الاستماع لدى التلميذ أثناء تدقيقه لإدراك ما في الألغاز من

obeikandl.com

خداع صوتي في إلقائها.

٥- تحسين قدرة التلميذ على استعمال المخارج الصحيحة للحروف.

٦- تمكين التلميذ من إدراك مواضع الفصل والوصل.

٧- تنمية قدرة التلميذ على الإبداع ابتكار ألغاز مماثلة.

٨- توسيع الأفق للتلميذ بتمكينه من الربط بين البلاغة والقواعد النحوية.

٩- زيادة المحصول اللغوي للتلميذ من خلال الألغاز التي تعتمد على الاشتراك اللفظي وحلولها.

١٠- تمكين التلميذ من استخدام الإيجاز في التعبير عملية تطبيقية.

أساليب تعليم النحو بالألغاز:

ومن الممكن استخدام عدة مداخل، أو أساليب لاستخدام الألغاز في تعليم القواعد النحوية. فمن الأساليب التقليدية يمكن الاعتماد على طريقة البطاقات أو الألعاب اللغوية أو التمثيليات القصيرة، وكلها طرائق مألوفة في تعليم القواعد ويبقى أن يتم بناء محتواها بحيث يتضمن اللغز المطلوب حله مؤدَّى بطريقة مشوقة، ثم يأتي الحل أيضاً بطريقة مشوقة.

كذلك يمكن الاعتماد على المدخل المسرحي من خلال تأليف مسرحيات مدرسية تتحقق لها أعلى درجة ممكنة من الإثارة والتشويق من خلال الحوار واستخدام الوسائط التعليمية على المسرح بحيث يتضمن محتوى المسرحية ألغازاً

مثيرة للتفكير.

وأما أساليب تعليم النحو الحديثة فيتسع فيها المجال لتعليم القواعد النحوية من خلال الألغاز، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق بناء برامج تعليمية مخصصة لهذا الغرض. كما يمكن استخدام الحاسوب في هذا الميدان بكفاءة، وتصميم برامج تعليمية حاسوبية تتدرج فيها الألغاز من مستوى إلى مستوى تبعاً لتطور المنهج الدراسي.

وإن كنت أرى أن المرحلة الأنسب لاستخدام هذه الطريقة هي المرحلة الثانوية لما تحقق لتلاميذها من نمو عقلي يناسب هذا اللون من التعليم الابتكاري.

صعوبات تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

غير أن هناك صعوبات تكتنف هذه الطريقة لعل من أهمها:

١- كون اللغة العربية في معظم مناهجنا تدرس بوصفها فروعاً مستقلة مما يسهم في تجزيئية الفكر اللغوي عند التلاميذ.

٢- ضعف ثقافة معلمي اللغو العربية التراثية، فهناك ما يقرب من ثلاثمئة مرجع لغوي قديم وحديث تحتوى ألغازاً متعددة معظمها بعيد تماماً عن مناهج كليات التربية والآداب التي تقوم بإعداد المعلمين.

٣- إن اللغز يشير إلى القاعدة إشارة ولا يشرحها، ومن ثم فإن برنامج مقترحاً لتنفيذ هذه الطريقة قد يكون أجدى من الأساليب التقليدية كالتمثيليات

obeikandl.com

أو البطاقات أو الألعاب.

٤- أن الأسلوب التقليدي لتعليم النحو على هيئة أبواب مستقلة قد يجعل من الصعوبة استخدام الألغاز التي تربط بين أكثر من باب من أبواب النحو في آن واحد.

obeikandl.com

هل عرف أجدادنا أدب الأطفال ؟

أدب الطفل ، أو أدب الأطفال ، هو تلك الأعمال الأدبية المنتجة خصيصا للأطفال وتشمل الأجناس الأدبية المعروفة فى أدب الكبار من شعر وقصة ومسرحية فهو فى النهاية وجه ثان لأدب الكبار يشترك معه فى الأهداف العامة وهى الإمتاع والتسلية والتهذيب والتثقيف . ويختلف عنه فى الحجم واللغة ، فمن المتعارف عليه أن يكون أدب الأطفال أصغر حجماً إذ لا قدرة للطفل على متابعة رواية متشابكة طويلة ، ولغة الطفل محكومة بنموه اللغوى المحدود فلا يصح أن تكون لغة الأدب الأطفال صعبة المعانى أو مجازية التراكيب .

وإذا كان فنا القصة والمسرح قد وفدا إلى الأدب العربى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين مع الاحتكاك الثقافى بأوربا ، فإن الشعر كان هو الفن الأدبى الأكثر عراقة فى الثقافة العربية . بل إنه كان ديوان العرب وسجل حياتهم ووسيلتهم الإعلامية والتربوية قديماً .

وقد ذهب بعض دارسى تاريخ الأدب العربى إلى أن الشعر العربى القديم تضمن كثيراً من عناصر فنى القصة والمسرحية من حيث الشخصيات والحوار والحبكة الدرامية وكأنهم أرادوا بذلك أن ينفوا أن يكون مولد ذينك الفنين : القصة والمسرحية نتيجة تأثر بالأدب الغربى .

وقياساً على ذلك يمكن القول بأن أدب الطفل ، إذا عددناه فناً أدبيا جديدا له جذور فى تراثنا الشعرى القديم . غير أن مثل هذا القياس لايسلم ، لأن لأدب الطفل ، بمعناه الحديث ، خصائص تميزه من غيره ، وتجعله فنا ذا طابع خاص ومن ثم تصبح نسبته إلى الأدب القديم غير شرعية .

غير أن شعرنا العربى القديم إذا لم يكن قد احتوى أدب الأطفال بوصفه فنا أدبيا خاصا؛ فقد تضمن الكثير من أدب الأطفال بوصفه لوناً شعرياً متميزاً ، أو غرضاً شعرياً عرفته القصيدة العربية ، فقد روت لنا كتب التراث كثيرا من الأبيات أو المقطوعات أو أبعاض القصائد التى تحدث أصحابها فيها عن تربية الأطفال وشؤونهم (كما روت لنا كتب التراث كثيراً من تلك الأرجاز التى كانت النسوة يتغنين بها لأطفالهن ، أو يرقصنهم بها . بل ونسبت كتب التراث ذلك فى بعض الأحيان للرجال ، فكأن الرجل العربى القديم لم يكن متجهماً فظاً غليظ القلب كما تصوره لنا بعض الكتابات . بل كان يشارك زوجه فى خدمة بيته وحمل أطفاله وترقيصهم وتدليلهم إذا دعت إلى ذلك حاجة .

فقد روى الجاحظ فى البيان والتبيين أن الزبير بن العوام كان يرقص ابناً له وهو ينشد مرتجزًا متفاخرًا بابنه الذى ينتسب إلى أبى بكر الصديق :

أبيض من آل أبى عتيق

مبارك من ولد الصديق

ألدُّه كما ألدُّ ريقى

وروى الراغب الأصفهانى فى (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء) نموذجاً أخر من بحر الرجز لشاعر يصف وجوه أطفاله بأنها كالأقمار جمالاً ، وهو يقول إنه لولا هؤلاء الصغار للزم داره ولم يغش تصور الملوك الجبابرة ولكن حاجته إلى المال لرعاية أطفاله ألجأته إلى مدح الملوك :

واللّٰه لولا صبية صغار
وجوههم كأنها أقمار
لما رآني ملك جبار
ببابه ، ما طلع النهار

ويروى لنا صاحب " العقد الفريد " أبياتا رجزية أخرى مما كان يستخدم فى ترقيص الأطفال لأعرابى خفيف الظل يشبه حبه لطفله ، بحب بخيل أتاه المال بعد معاناة وفقر شديدين ، فهو يحب ماله حباً جما ، وكلما عنّ له أن ينفق شيئا من ماله ذاك الذى أتاه بعد طول نقر ، بدا له شئ عاقه عن بذل ذلك المال . فهوضنين بطفله تماماً كضن ذلك البخيل بماله فيقول ذلك الأعرابى وهو يرقص طفله :

أحبه حبَّ الشحيح ماله
قد كان ذاق الفقر ، ثم ناله

obeikandl.com

إذا أراد بذله ، بداله

وشاع فى كتب التراث أيضا ذلك الترقيص الذى تغنت به أعرابية :

يـــا حبـــذا ريـــح الولـــد
ريـح الخزامـى فـى البلـد
أهكـــذا كـــل ولـــد ؟
أم لم يلـد مثلـى أحـد ؟

فهذه الألوان السابقة من الشعر يمكن أن نحتسبها جذورًا حقيقية لأدب الأطفال فى تراثنا العربى، ويمكن أن نضيف إليها ذلك القصص الرمزى الذى رواه لنا الجاحظ فى كتاب الحيوان " وكتاب" المحاسن والأضداد " المنسوب له ، أو رواه لنـا أبـو العـلاء فـى ثنايـا كتابـه الضـخم " رسـالة الصـاهل والشـاحج " أومـا رواه الأبشيهى فى كتابه " المستطرف من كل فن مستظرف " ومن هذا المصدر الأخير نختار القصة الآتية :

قال الشعبى : مرض الأسد فعادته السباع ماعدا الثعلب ، فأراد الذئب أن يكيد للثعلب عند ملك الحيوانات فقال للأسد : أيها الملك . لقد مرضت فعادتك السباع جميعً ماعدا الثعلب ، قال الأسد : فإذا حضر الثعلب فأخبرنى . فلما بلغ ذلك الثعلب جاء ليعود الملك فقال له الأسد : يا أبا الحصين مرضت فعادنى السباع كلهم إلا أنت . قال الثعلب : بلغنى مرض الملك فخرجت أسعى فى طلب الدواء له

فقال الأسد : فأى شئ أصبت ؟ قال الثعلب : قالوا لى : عليك بخرزة فى ساق الذئب ينبغى أن تخرج فيعالج بها الملك . فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب فشقها ، وتسلل الثعلب خارج عرين الأسد ، وبعد قليل مر عليه الذئب يعرج والدم يسيل من ساقه . فقال له الثعلب : يا صاحب الخف الأحمر ، إذا قعدت بعد هذا عند سلطان ، فانظر ما يخرج من رأسك !! "

فمثل هذه القصة وغيرها مما روته لنا كتب التراث يصلح أن يكون مادة طيبة لأدب أطفال حقيقى يشتمل على كل الخصائص التى يمتاز بها أدب الأطفال العصرى ، وهذا القصص القديم إلى جانب شعر الترقيص الذى أشرنا إليه ، مما نستطيع أن نعده - دون تجوز - أصولاً عربية حقيقية لأدب الأطفال . فإذا انتقلنا إلى لون آخر من ألوان الأدب القديم المتصلة بالأطفال، وجدنا ما يمت إلى الأطفال بصلة ما ، مثل الحديث عن تربيته وتعليمهم ، والحديث عن تنكرهم - فى بعض الحالات - لآبائهم أو أمهاتهم ، والحديث عن رثاء الأطفال الذين ماتوا صغار فلم تقربهم عيون أهلهم .. إلى آخر تلك الفنون التى نرى أنها تنتمى إلى أدب الكبار أكثر من انتمائها إلى أدب الأطفال ، وما نرى فيها إلا لوناً خاصا من ألوان الفن أو غرضاً جديداً من أغراض الشعر لم يلتفت إليه نقادنا قدر التفاتهم إلى تلك الأغراض الشعرية التقليدية من مرح وفخر وهجاء وغزل .

والحطيئة مع ما جبل عليه من شراسة الطبع ، وتبلد المشاعر ، وحدة الجفاء ، يروون عنه أبياتاً تفيض رقة وعذوبة فى مجال حياته الأسرية كقوله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سجنه :

مـــاذا تقـــول لأفـــراخ بـــذى مـــرخ زغـب الحواصـل لإمـاء ، ولاشـجر

ألقيـت كاسـبهم فـى قعـر مظلمـة فـاغفر عليـك سـلام الله يـا عمـر

فقد رووا أن الحطيئة هذا الغليظ القلب أراد سفرًا طويلاً فهيأ دابته وأخذ متاعه على راحلته وخرجت زوجته وبناته يود عنه فقال مخاطباً مهددًا إياها بطول الغياب :

عُدّى السنين إذا رحلتُ لرحلتى

ودعى الشهور فإنهن قصار

فأجابته زوجته فى الحال بقولها :

اذكر تحنُّنَنَا إليـــك وشـوَقنا

واذكـــر بناتـك إنهن صغار

فأخذته العاطفة إلى بناته وقال لمرافقيه : حُطوُّا - أى أنزلوا أمتعتى من على الرواحل - فو الله لارحلت أبدًا " .

وهكذا ، يجد المتأمل فى تراثنا الأدبى القديم ثروة وأصولاً طيبة ليس فقط لأدب الأطفال بمعناه العلمى الضيق ، بل ولأدب الأطفال بوصفه باباً واسعاً من أبواب الأدب العربى القديم كما نقول : أدب الكتاب ، وأدب الوزراء بمعنى ما قيل

لهـم وفـيهم وعـنهم وفـى مجالسـهم مـن أشـعار وقصـص ومسـاجلات ومسـامرات وأحاديث . فلا جناح علينا إذًا أن نتسع بمفهوم أدب الأطفال فى تراثنا ليشمل :

أ - القصص الرمزى على ألسنة الحيوانات والطيور فمثل ذلك القصص يصلح للأطفال فى كل زمان ومكان .

ب - مراثى الآباء والأمهات لأبنائهم

ج - شعر الترقيص .

د - مراسلات الآباء والأبناء .

هـ - عتاب البناء العاقّين .

و - قضية وأد البنات وما ورد فيها من شعر تأييدًا أو تفنيدًا .

ز - تعليم الأطفال .

ج - نوادر المعلمين مع الأطفال (كما فى رسالة المعلمين للجاحظ) .

opeikandl.com

عندما يهجو الشعراء آباءهم !!

من عجائب الدنيا أن يكون بين الوالد وولده من الجفوة وسوء المعاملة ما يكدر صفو الحياة ويحول الحياة الأسرية إلى نكد مستمر، وعذاب متجدد، وقد يكون الوالد هو السبب في ذلك حين يسئ معاملة ابنه فينشأ الابن عاقاً غليظ القلب متمردا ، بل وخبيث اللسان أيضا فقد قالوا : كان لحنظلة النميري ابن عاق اسمه مرة، فقال له يوماً: إنك لمر يا مرة فقال: أعجبتني حلاوتك يا حنظلة !! ، فقال: إنك خبيث كاسمك، فقال: أخبث مني من سماني به، فقال: كأنك لست من الناس فقال: من أشبه أباه فما ظلم، قال: ما أحوجك إلى أدب، قال:

الذي نشأت على يده أحوج إليه مني، قال: عقمت أم ولدتك، قال: إذا ولدت من مثلك،

قال: لقد كنت مشؤوماً على إخواتك، دفنتهم وبقيت، قال: أعجبني كثرة عمومتي، قال: لا

تزداد إلا خبثاً، قال: لا يجتني من الشوك العنب.

ومن غرائب تراثنا الشعري ما نجده في كتب التراث عند نفر من الشعراء عرفوا بسلاطة اللسان وسوء الخلق، وعقوق الوالدين.

ويأتي على رأس هؤلاء "الحطيئة" الذي هجا نفسه وأمه وأباه ، فقد روى الراغب الأصفهاني في محاضراته أن "الحطيئة" قال يهجو نفسه وقد نظر في بئر فساءه منظره:

obeikandl.com

أبـــت شـــفتاي اليـــوم إلا تكلمـــا بشـــرٍّ فمـــا أدري لمـــن أنـــا قائلـــه
أرى لـــيَ وجهـــاً قـــبح الله خلقـــه فقـــبح مـــن وجـــه وقـــبح حاملـــه

وقال يهجو أمه:

لحـــاك الله شـــرا مـــن عجـــوز ولقـــاك العقـــوق مـــن البنينـــا
تنحـــي واجلســـي مـــني بعيـــدا أراح الله منـــك العالمينـــا
أغربـــالاً إذا اســـتودعت ســـراً وكانونـــاً علـــى المتحـــدثينا
ألم أوضـــح لـــك البغضـــاء مـــني ولكـــن لا إخالـــك تعلمينـــا
حياتـــك مـــا علمـــت حيـــاة ســـوء وموتـــك قـــد يســـر الصـــالحينا

وقال يهجو أباه:

لحاك الله ثـــم لحـــاك حقـــا أبـــا، ولحـــاك مـــن عم وخال
فبئس الشيخ أنت على النوادي وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعـــت اللـــؤم لا حياك ربي وأبواب المخـــازي والضـــلال

وقال أيضا يهجو والديه معا في بيت واحد مخاطبا أمه:

ولقـــد رأيتـــك في النســـاء فسـؤتني وأبـــا بنيـــك فســـاءني في المجلـــس

ومما روى الخالديان في "الأشباه والنظائر" قول أعرابي يهجو أباه وقد رآه يتصابى وهو في سن متقدمة ويتخلى عن وقاره وعما يليق بسنه من هيبة وترفع فقال يهجوه:

إذا كانت الآباء مثل أبٍ لنا فلا أبقت الدنيا على ظهرها أبا

إذا شاب رأس المرء أقصر وارعوى وإن أبانا حين شاب تشببا

وروى أبو الفرج في "الأغاني" عن "مطيع بن إياس" الشاعر الماجن المعروف أنه كان عاقا لأبيه شديد البغض له ، وقد رآه يوما مقبلا عليه من بعيد "ومطيع" جالس مع إخوانه يشربون الخمر فلما اقترب منهم "أبو مطيع" قال "مطيع" يهجوه:

هذا إياس مقبلا جاءت به إحدى الهنات

"هوزن" فوه وأنفه "كلمن" في إحدى الصفات

وكأن "سعفص" بطنه والثغر "شين" "قريشات"

لما رأيتك آتيا أيقنت أنك شرآت

وتبدو في الأبيات رائحة الخمر وآفة السكر فهو يسخر من منظر أبيه ويشبهه بمجموعات الأبجدية العربية القديمة (هوز-كلمن-سعفص-قرشت).

ورووا عن أعرابي أنه دخل على كسرى مجلس ملكه فهابه ما رأى من بهاء المقاصير وفخامة الأرائك وصباحة الوجوه ، وتذكر ما يعانيه قومه البدو الأعراب من شظف العيش وسوء الحال وكآبة المنظر فقال:

لَكسرى كان أعقلَ من تميمٍ لياليَ فرَّ من بلدِ الضباب

فأسكن أهله ببلاد رحبٍ وأشجار وأنهار عِذاب

obeikandl.com

فصـــار بنـــو أبيـــه بهـــا ملوكـــا وصـــرنا نحـــن أشـــباه الكـــلاب

فـــلا رحـــم الإلـــه هـــدى تمـــيم فقـــد أزرى بنـــا في كـــل بـــاب

وأما الشاعر "ابن عنين"وقد كان أيضا من المجان المولعين بالهجاء ، وله قصيدة شهيرة سماها "مقراض الأعراض" هجا فيها كثيرا من معاصريه ، أشار إليها "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" وابن خلكان في "وفيات الأعيان" فقد هجا أباه فقال:

وجنـــبني أن أفعـــل الخـــير والـــدٌ ضـئيلٌ إذا مـا عُـدَّ أهـل التناسـل

بعيد من الحسنى ، قريب من الخنا وضيع مساعي الخير جم المعايب

إذا رمت أن أسمو صعودا إلى العلا غـدا عرقـه نحـو الدنيـة جـاذبي

وروى ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة عن الشاعر علي بن محمد بن بسام البغدادي ، وكان شاعرا مجيدا إلا أن غالب شعره كان في الهجاء حتى هجا نفسه وهجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته وكان يكنى أبا جعفر فقال:

بنـــى أبـــو جعفر داراً فشيدها ومثلـــــه لخيار الدور بناء

فالجـــوع داخلها والذل خارجها وفي جـــوانبها بؤس وضراء

ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء

وروى المحبي في خلاصة الأثر عن الأديب أحمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد الأديب اللغوي الشاعر المنشى المشهور أصل والده من جزيرة قبرس

obeikandl.com

بالسين المهملة لا بالصاد كما يغلط فيه العوام جزيرة بالبحر الشامي وهو من الفيء الذي أفاءه الله على الأسلام حين فتحها فأشتراه بعض الأمراء وتبناه وجعله من أجناد دمشق ومكث بعد الأمير يزداد في الرفعة حتى صار أحد الأعيان المشار إليهم بالتقدم وولد له أحمد هذا ونشأ وانتظم في سلك الجند ولما وقعت الفتنة بين علي بن جانبولا ذو العساكر الشامية وانتهى الأمر إلى انهزام العسكر الشامي وقتل منهم من قتل وأسر من أسر كان الشاهيني من جملة من أسر في تلك الوقعة ولما أطلق من ربقة الأسر اعتاض عن الوشيج والحام بالقراطيس والأقلام كما قال :

صبوت إلي حب الفضائل بعدما تقلدت خطيا وصلت بلهذم

وكان الشاهيني على طريقة ابن بسام ويقفو أثره في عبث اللسان وشكوى الدهر وهجاء أبناء عصره وكان ابن بسام هجا أباه فضرب الشاهيني على قالبه ونسج على منواله حيث قال في أبيه

أقول لركب من معين وهم على جناح رحيل دائم الخفقان

أمـــا أنـــه لولا فراق بكورنا يثبن إلى ردى بجذب عناني

ولولا أبي شاهين قص قوادمي لكان جناحي وافر الطيران

وقال

لما رأيت العيش من ثمر الصبا وعلمت أن العفو حظ الجاني

أدركـــت مـــالا سولته شبيبتي وفعلـــت مـــالا ظنه شيطاني

ولما مات والده في سنة أربعين وألف حزن لفقده وانعزل عن الناس مدة .

وقال آخر في أبيه:

لي والـــد متحـــامل من غير ما جرم عملته
إن لم يكن أشنى إليّ من المنون فلا عدمتــه

وقال في أخيه منصور:

أبوك أبي وأنت أخي ولكن أبي قد كان يبذر في السّباخ
تجاريني فلا تجري كجريــي وهل تجري البيادق كالرخاخ

obeikandl.com